

الحرب والسلام

ليو تولستوى

الجزء الرابع

ترجمة: ادوار الخراط



ليو تولستوى

الحرب والسلام

ترجمة: ادوار الخراط



الهيئة المصرية العامة للكتاب

الكتاب الرابع

الفصل الأول

فى أوائل عام ١٨٠٦ ، عاد نيكولاس روستوف فى إجازة إلى الوطن . كان دينيزوف فى طريقه إلى بلده فورونيز ، فأغراه روستوف بأن يسافر معه حتى موسكو ، ويبقى معه هناك . وقد التقى دينيزوف بأحد زملائه فى آخر محطات العربات قبل موسكو ، فشرب معه ثلاث زجاجات من النبيذ ، ولم يستفق من سكرته على طول الطريق إلى موسكو ، بالرغم من أخاديد الطريق التى كانت تنفضُ الزحافة نفضاً ، بل تمدد فى قاعها ، إلى جانب روستوف . أما هذا الأخير فقد كانت تزداد به اللهفة ونفاد الصبر كلما اقترب موسكو .

وفيما كانت تصريحات الإجازة تختم على بوابة المدينة . وعند دخولهما إلى موسكو ، كان روستوف مايني يفكر :

— كم بقى من الزمن ؟ كم بقى من الطريق ؟ آه ، هذه الشوراع ، والدكاكين ، ولافتات المخابز ، ومصابيح الشوارع ، والزحافات التى لاتطاق . . !

وقال ، وهو ينحنى إلى الأمام بكل جسمه كما لو كان يأمل ، فى ذلك الوضع ، أن يعجل من سرعة الزحافة :

— دينيزوف ..! هاقد وصلنا ..! إنه نائم .

ولم يجب دينيزوف .

— هذه هي الناصية عند مفترق الطرق حيث يقف زاخار الحوذيّ ، وهو ذا زاخار بنفسه . ونفس الحصان مايزال ..! وهذا هو الدكان الصغير حيث كنا نشترى كعك الزنجبيل ..! ألا تستطيع أن تسرع ؟ هيا الآن ..!

فسأل السائق :

— أى بيت هو ؟

قال روستوف :

— ذلك البيت فى الآخر تماماً ، البيت الكبير ، ألا ترى ؟ هذا بيتنا . بالطبع بيتنا ! دينيزوف ، دينيزوف ..! ها قد وصلنا تقريباً ..!

فرفع دينيزوف رأسه ، وسعل ، ولم يحر جواباً

قال روستوف لوصيفه الذى اتخذ مجلسه على صندوق الزحافة :

— ديمترى ، هذه الأنوار فى بيتنا ، أليس كذلك ؟

— نعم ياسيدى ، وهناك نور فى مكتب والدك .

— فلم يذهبوا إلى الفراش إذن ..! ماذا تظن ..؟

ثم أضاف وهو يمس بأصابعه شاربه الحديث العهد :

— لاتنس الآن أن تخرج سترتى الجديدة .

ثم هتف بالسائق :

— هيا الآن ..! أسرع ..!

والتفت إلى دينيزوف وقد عاد ينغض رأسه :

— إصح والله ياڤاسكا ..!

فلما لم تمد الزحافة إلاعلى بعد ثلاثة بيوت من عتبة بابه ، هتف بالسائق:

— هيا أسرع ..! ولك ثلاثة روبلات للفودكا ، أسرع ..!

كان يبدو له أن الخيل لاتتحرك إطلاقا . وفى النهاية مالت الزحافة نحو اليمين، وتمهلت عندمدخل بيت،ورأى روستوف، فوقرأسه ،الكورنيش القديم المألوف ، وقد قشر عنه جانب من طلائه . والشرفة والعمود القائم إلى جانب الرصيف . ووثب نازلا قبل أن تقف الزحافة ، وجرى إلى الردهة . كان البيت يقوم صامتاً لاحرارة فيه ، كما لو كان غير معني إطلاقاً بمن جاء إليه . ولم يكن فى الردهة أحد فوقف لحظة وقد غاص قلبه ، وراودته الفكرة :

— يا إلهى ..! أهم جميعاً على مايرام ؟

ثم أخذ يجرى على الفور ، فى الردهة ، ثم ارتقى الدرجات الدائرية على السلم المألوف . وقبضة الباب القديمة التى يعرفها حق المعرفة ، والتى كانت دائماً تحنق الكونتيسة إن لم تنظف كما ينبغى ، دارت فى يده خفيفة غير محكمة، شأنها أبداً ، وكان فى غرفة الانتظار شمعة واحدة من الشحم موقدة.

كان ميشيل المحوز نائماً على الصندوق ، وكان هناك بروكوفى ، الخادم الذى كان يبلغ من قوته وشدة بأسه أن يرفع ظهر عربة خيل من مؤخرتها ، جالساً يضفر خفاً من جذاذات قماش : فرفع بصره إلى الباب المفتوح ، وتغيرت بغتة نظرة الاهمال الناعسة فى عينيه الى دهشة فرحة .

وصاح وقد عرف سيده الشاب :

— ياللسماوات الرحيمة ..! الكونت الصغير ..! أهذا ممكن، يا كنزى!

واندفع بروكوفى ، يرتجف انفعالا ، نحو باب غرفة الاستقبال ، حتى يعلن مقدمه على الأرجح ، لكنه عدل ورجع فانحنى يقبل كتف سيده الشاب.

وسأل روستوف وهو يجذب ذراعه بعيداً عنه :

— الكل على مايرام ؟

— نعم ، والحمد لله ..! نعم ..! انتهوا حالا من العشاء ، دعنى أنظر اليك ، ياصاحب السعادة .

كل شيء على مايرام تماماً ؟

نعم ، ولله الحمد .. !

كان روستوف قد نسى دينيزوف كل النسيان ، ولم يكن يرغب في أن يتقدمه أحد، فألقى بسترته المصنوعة من الفراء ، وجرى على أطراف قدميه عبر غرفة الرقص المعتمة كان كل شيء على عهـده به . فهناك موائد اللعب بعينها ، والشمعدان نفسه وفوقه الغطاء . على أن أحداً كان قد رأى السيد الشاب بالفعل ، وقبل أن يبلغ غرفة الاستقبال اندفع إليه شيءٌ ما من الباب الجانبي كالإعصار، وأخذ يحضنه ويقبله . ووثب من باب آخر شخص آخر ، وآخر أيضاً ، ومزيد من العناق ، مزيد من القبلات ، ومزيد من الصيحات ، ودموع من الفرح ، ولم يكن فى وسعه أن يتبين أيهم بابا ، وأيهم ناتاشا ، أو پيتيا ، كانوا جميعا يهتفون ويتكلمون ، ويقبلونه فى نفس الوقت . إلا أن أمه لم تكن هناك ، ولاحظ ذلك .

— ولم أكن أعرف .. نيكولاس .. ياحبيبي .!

— إنه هنا .. عزيزنا كوليا .. كم تغير .. ! أين الشموع .. ؟ الشاى .. !

— وأنا ؟ قبلنى .. !

— يا أعز الناس ، وأنا .. !

كانت سونيا ، وناتاشا ، وپيتيا ، وآنا ميخايلوڤنا ، وڤيرا ، والكونت الشيخ كلهم يعانقونه ويحتضنونه ، وتدفق الأقنان ، رجالا ونساء ، إلى الحجرة ، يهتفون ويتعجبون .

وما فتىء پيتيا يتعلق بساقيه ويهتف :

— وأنا أيضا .. !

وبعد أن جذبته ناتاشا نحوها إلى تحت ، وغطت وجهه بالقبلات ، وهى تمسكه مسكة وثيقة من سترته ، وثبت بعيدة عنه وأخذت تقفز فى موضع واحد كأنها عنزة ، وهى تصرخ صرخات ثاقبة .

كانت تحدق به من كل جانب أعين تفيض بالمحبة وتومض بدموع الفرح ، وشفاه تنشد قبلة .

وكانت سونيا أيضا ، وقد توردت بالاحمرار ، تتعلق بذراعه ، وهى مشرقة بالغبطة ، تنظر بشغف إلى عينيه ، فى انتظار النظرة التى تتوق إليها . كانت سونيا الآن فى السادسة عشرة ، وكانت حلوة جداً ، وعلى الأخص فى لحظة الانفعال السعيد النتشى تلك . كانت تحدق إليه ، لا ترفع عنه عينيها ، وتبتسم ، وتحبس أنفاسها . فأعطاها نظرة امتنان ، على أنه كان مازال ينتظر شيئاً ، ويبحث عن شخص ما . لم تكن الكونتيسة قد جاءت بعد ، وسمع الآن وقع خطوات على الباب ، خطوات كانت من السرعة حتى ليصعب أن تكون خطوات أمه .

ومع ذلك فقد كانت هى ، تلبس رداء جديداً لم يكن يعرفه ، فقد صنعته لنفسها فى غيبته . فتركه الآخرون جميعاً ، واندفع يجرى إليها . فلما التقيا سقطت على صدره باكية . لم يكن يسعها أن ترفع وجهها ، بل كانت تضغطه إلى الشرائط المضفورة الباردة على سترته . وكان دينيزوف قد دخل إلى الغرفة دون أن يلحظه أحد ، فوقف هناك ، يمسح دموعه أمام هذا المشهد .

وقال يقدم نفسه للكونت الذى كان ينظر إليه متسائلا :

— ڤاسيلى دينيزوف ، صديق ابنك .

قال الكونت وهو يقبل دينيزوف ويعانقه :

— أهلا وسهلا !.. إننى أعرف ، كان نيكولاس يكتب إلينا .. ناتاشا ، ڤيرا ، انظروا !.. هو ذا دينيزوف .

فاستدرات الوجوه السعيدة الجذلة إلى دينيزوف الشعث الرث .

وهتفت ناتاشا وقد استبدت بها النشوة ، ووثبت اليه تحيطه بذراعيها وتقبله :

— حبيبي دينيزوف ..!

فأربكت الجميع هذه الدفقة من الانفعال وتضرج دينيزوف أيضاً ، لـكنه ابتسم وأخذ يد ناتاشا فقبلها .

وذهب دينيزوف إلى الغرفة المعدة له ، وتجمع آل روستوف جميعاً حول نيكولاس فى غرفة الجلوس .

ولم تدع الـكونتيسة يده من يدها لحظة واحدة ، وما برحت تقبلها فى كل لحظة ، وقد جلست بجانبه . وتزاحم الباقى حواليه ، يرقبون كل حركة ، وكلة ، ونظرة تصدر عنه ، لا يرفعون عنه أبداً أعينهم التى تفيض بعبـــادة منتشية ، وتنازع أخوه وأختاه أقرب الأماكن إليه ، وكانوا يتنازعون فيمن يأتى له بالشاى ، أو المنديل ، أو الغليون .

كان روستوف سعيداً جداً بالحب الذى يبدونه له ، على أن لحظـة اللقاء الأولى كانت قد بلغت حداً من الغبطة والنشوة ، بدت معه بهجته الراهنة الآن شيئاً قاصراً غير واف ، فما فتىء ينتظر المزيد ، والمزيد أيضاً .

ونام المسافران فى الصباح التالى حتى العاشرة ، بعد مشقات رحلتهما .

وكان فى الغرفة المجاورة لغرفة نومها خليط من السيوف ، والحقائب ، والأغمدة ، وحقائب الملابس المفتوحة ، والأحذية الملطخة . وكان قد وضع بجوار الحائط زوجان نظيفان من الأحذية مع مهمازيهما . وكان الخدم يأتون بالأباريق والأحواض ، وماء ساخن للحلاقة ، وملابسهمـا التى نظفت ، وكان ثمة رائحة من الرجولة وعبق الطباق .

وجاء صوت ڤاسيلى دينيزوف الأجش :

— هالو ، جويشكا — غليونى ..! يستوف .. إصح ..!

فدعك روستوف عينيه وقد لاح أنهمـا لصقتا معاً ، ورفع رأسه المشعث الشعر من على المخدة السخنة :

— لم ..؟ تأخر الوقت .. ؟

فأجابه صوت ناتاشا :

— تأخر الوقت ! الساعة العاشرة تقريباً .

وجاء من الغرفة المجاورة حفيف الفساتين المنشاة ، وهمسات وضحكات بنات . وانفتح الباب عن خصاص صغير ، وتخايل شيء أزرق اللون ، وأشرطة وشعر أسود ، ووجوه مرحة . كان أولئك ناتاشا . وسونيا ، وپيتيا ، وقد جاءوا ليروا ما اذا كان المسافران قد نهضا .

وسمع صوت ناتاشا مرة أخرى على الباب :

— نيكولاس ..! إصح ..!

— حالا ..!

وفى هذه الأثناء كان پيتيا قد عثر على السيوف فى الغرفة الخارجية ، وأمسكها بسرور الصبيان لمرأى أخ أكبر فى الجيش ، ونسى أنه من غير اللائق أن ترى البنات رجالا غير مرتدين كامل ملابسهم ، ففتح باب غرفة النوم .

وصاح :

— أهذا سيفك ؟

وثبت البنات الى جنب ، وأخفى دينيزوف ساقيه الشعراوين تحت البطانية ، وهو ينظر إلى زميله بوجه مفزّع ، يطلب النجدة . فلما دخل پيتيا من الباب أُقفل وراءه . وجاء من خلفه صوت ضحكات .

جاء صوت ناتاشا :

— نيكولاس ..! البس الروب دى شامبر واخرج ..!

سأل پيتيا :

— أهذا سيفك ؟

ثم قال مخاطباً دينيزوف ، بشاربه الأسود ، فى احترام واتضاع :

— أم هو سيفك ؟

لبس روستوف شيئاً فى قدميه ، بتعجل ، وسحب الروب دى شامبر فلبسه ، وحرج . كانت ناتاشا قد لبست إحدى فردتى الحذاء ذى المهاز ، وكانت لما تكد تدخل قدمها فى الفردة الأخرى . وكانت سونيا ، عندما دخل ، تدور حول نفسها حتى تفرد فستانها فيصبح كالبالون ، وتجلس. كانتا ، كلتاها ، تلبسان فستانين متشابهين ، لونهما أزرق فاتح . وكانتا كلتاهما ، صابحتى المحيا ورديتين مشرقتين بالغضوضة والطراوة . جرت سونيا هاربة ، أما ناتاشا فأخذت ذراع أخيها وذهبت به إلى غرفة الجلوس حيث أخذا يتكلمان . لم يكادا يتيحان لأحدهما الآحر الوقت أن يسأل ويجيب عن ألف مسألة صغيرة لم تكن لتعنى أحداً سواهما . كانت ناتاشا تضحك لكل كلمة يقولها أو تقولها هى ، لا لأنهما كانا يقولان مايضحك ، بل لأنها كانت سعيدة لاتطيق أن تسيطر على فرحها الذى يجد متنفساً فى الضحك .

وكانت تقول ، لكل شىء :

— أوه .. ما أجمل ذلك ، ما أروعه ..!

وأحس روستوف ، تحت أثر هذه الأشعة الدافئة من الحب ، أن تلك الابتسامة التى تشبه ابتسامة الأطفال ، قد عادت ، للمرة الأولى بعد ثمانية عشر شهراً ، تسطع فى روحه وتشرق على وجهه ، ولم تكن قد بدت على وجهه مرة واحدة منذ بارح البيت .

وقالت :

— لا ، إسمع .. أنت الآن رجل تماماً ، أليس كذلك؟ إننى مسرورة جداً لأنك أخى ..

ومست شاربه ، واستطردت :

— أريد أن أعرف من أنتم أيها الرجال . هل أنتم مثلنا ..؟ لا ؟

سأل روستوف :

— لماذا جرت سونيا هاربة ؟

— آه ، نعم ..! هذه حكاية طويلة وحدها ..! كيف ستخاطبها ، هل تكلمها بألفة ، أم بشكل رسمي .. ؟ (*)

قال روستوف :

— كيفما اتفق .

— لا ، كن معها رسميا (*) أرجوك ..! سوف أخبرك بكل شيء فيما بعد لا بل أقول لك الآن . أنت تعرف أن سونيا أعز صديقاتي . حتى لقد أحرقت ذراعي من أجلها . أنظر ..!

وجذبت كم فستانها الموسلين وأطلعته على ندبة حمراء في ذراعها الطويلة الناحلة الرقيقة ، عالياً فوق المرفق ، في الجزء الذي يخفيه حتى فستان الرقص .

— أحرقت هذا حتى أبرهن على حبي لها . سخنت مسطرة في النار وضغطتها هنا ..!

كان روستوف يجلس على الكنبة ، وعلى مسنديها الوسائد الصغيرة ، في الحجرة التي كانت حجرة دراسته فيما مضى ، وهو ينظر إلى عيني ناتاشا

(*) تستخدم في اللغة الروسية ، شأنها في ذلك شأن بعض اللغات الأوربية ، صيغتان للخطاب ، احداهما تنم عن الالفة ويخاطب بها الاطفال والاقرباء ، وأخرى صيغة المخاطب الجمع لتدل على التوقير أو التزام صيغة الاحترام . وفي الترجمة هنا تصرف يسير لم أجد منه بداً ، فقد بدا لي من العبث ترجمة العبارة حرفاً :

— هل تقول لها أنت ، أم حضرتك ..

أو :

— هل تقول لها أنت ، أم أنتم ..

فذلك في العربية ، كما هو واضح ، محض لغو . (المترجم)

اللامعتين ببريق متألق ، فعاذ يلج مرة أخرى عالم البيت والطفولة ذاك الذى لم يكن ليعنى شيئاً عند أحد سواه ، على آنه يوفر له شيئا من أسمى أفراح حياته ، ولم يكن إحراق ذراع بمسطرة ، برهانا على الحب ، يبدو له لغواً ، بل شيئا فهمه ولم يدهش له .

وسأل :

— حسنا ، أذلك كل شيء ؟

— كم نحن أصدقاء ..! حكاية المسطرة هذه كلها هراء ، لكننا صديقتان الى الأبد . إنها إذا أحبت شخصاً فذلك مدى الحياة ، لكنى لا أفهم ذلك ، إننى سرعان ما أنسى .

— حسنا ، وماذا بعد ؟

— إنها تحبنى ، وذلك يروقك .

وتضرج وجه ناتاشا فجأة .

— هل تتذكر قبل أن تذهب .؟ حسنا ، إنها تقول أن عليك أن تنسى ذلك كله.. وتقول : «سوف أبقى على حبه دائما ، ولكن فليكن هو حراً » أليس ذلك جميلا ونبيلا !

وسألت ناتاشا ، بمبلغ من الجد والانفعال وضح معه أن ما تقوله الآن إنما تكلمت عنه من قبل ، والدموع فى عينيها :

— نعم ، نبيلا جداً ؟ أليس كذلك ؟

فبدا على روستوف الاستغراق فى التفكير . وقال :

— انى لا أحنث أبداً بكلمتى . فضلا عن أن سونيا ساحرة حتى أنه من الغباوة أن يرفض المرء مثل هذه السعادة .

فهتفت ناتاشا :

— لا . . لا . . ! تكلمنا هى وأنا فى ذلك فعلا . كنا نعرف أنك ستقول هذا ولكن لاجدوى. لأنك إذا كنت تقول هذا ـ ألا ترى ؟ ـ

إذا كنت تعتبر نفسك مرتبطاً بوعدك ـ فان ذلك يبدو كما لم تكن، هى، تعنى ماقالته ، ويبدو كما لو كنت تتزوجها لأنك مضطر إلى ذلك ، وذلك لاجدوى فيه أبداً .

فرأى روستوف أنهما قد تدبرتا الأمر . كانت سونيا قد استرعت انتباهه بجمالها فى اليوم السابق . واليوم إذ لمحها بدت له أروع جمالا . كانت فتاة ساحرة فى السادسه عشرة تهيم به حباً فيما هو واضح للعيان — لم يكن يرتاب فى ذلك لحظة . وساءل نفسه لم لايحبها الآن ، بل يتزوجها .. على أنه الآن كم توجد أمامه من مسرات واهتمامات أخرى ..! وخطر له :

— نعم ، لقد اتخذتا قراراً حكيماً يجب أن أبقى حراً .

فقال :

— حسناً ، هـــذا عظيم إذن . سنتكلم فى ذلك فيما بعد . أوه ، ما أسعدنى بأن تكونا لى .. !

ثم استطرد :

— وأنت ، أما زلت مخلصة لبوريس . ؟

فهتفت ناتاشا ضاحكة :

— أوه .. ياللكلام الفارغ ..! لا أفكر فيه ولا فى غيره ، ولا أريد شيئاً من هذا القبيل .

— يا إلهى .. فماذا تنوين أن تفعلى الآن ..؟

وردت ناتاشا ، وقد أضاء وجهها بابتسامة سعيدة :

— الآن ..؟ هل رأيت ديبور ؟

— لا . .

— لم تر ديبور — الراقص الشهير ؟ فلن تفهم إذن . هـــذا ما أفعله الآن .

وأحنت ناتاشا ذراعيها ،وأمسكت بفستانها كما تفعل الراقصات،وجرت

إلى الخلف بضع خطوات ، واستدارت ، ورقصت خطوة ، ثم أتت بقدميها الصغيرتين معاً فجأة ، وخطت بضع خطوات على أطراف قدميها .

وقالت :

ــ أنظر ..! إننى واقفة ..!

ولم تستطع أن تبقى واقفة على أطراف قدميها بعد ، وقالت :

ــ هذا ما أفعل الآن إذن ..! لن أتزوج أحداً أبداً ، بل سأصبح راقصة . لكن لاتقل لأحد .

فضحك روستوف ضحكة عالية مرحة حتى استشعر دينيزوف غيرة منه ، فى غرفة نومه ، وحتى لم تملك ناتاشا إلا أن تضحك معه .

وظلت تلح عليه :

ــ ولكن قل لى ألا تظن هذا مدهشاً ؟

ــ مدهش ..! وإذن فلا تريدين أن تتزوجى بوريس ؟

فهبت ناتاشا ثائرة :

ــ لا أريد أن أتزوج أحداً . وسوف أقول له عندما أراه ..!

فقال روستوف :

ــ يا إلهى ..

واستأنفت ناتاشا ترثر :

ــ لكن هذا كله هراء . وقل لى : هل دينيزوف ظريف ؟

ــ ظريف فعلا ..!

ــ آه .. طيب ، إلى اللقاء ، إذهب والبس . هل هو مخيف جداً ، دينيزوف ..؟

ــ لم مخيف ؟ لا ، ڤاسكا شخص عظيم .

ــ تسميه ڤاسكا ؟ هذا غريب . ! وهل هو ظريف جداً ؟

ــ جداً . .

— طيب ، هيا أسرع . سنفطر معاً .

ونهضت ناتاشا ، وخرجت من الغرفة على أطراف قدميها ، كما تفعل راقصة باليه ، وإن كانت تبتسم كما لا يستطيع أن يبتسم إلا البنات السعيدات في الخامسة عشرة . ولما التقى روستوف بسونيا في غرفة الاستقبال إحمرّ وجهه ، ولم يدر كيف يتصرف ازاءها . كانا في البارحة ، عند لحظة اللقاء السعيدة الأولى ، قد قبّلا أحدهما الآخر . أما اليوم فقد أحسا أن ذلك لم يكن من المستطاع . وأحس أن الجميع ، وفي ذلك أمه وأختاه ، ينظرون اليه بتساؤل ، ويرقبونه ليروا كيف يتصرف معها . فقبل يدها ولم يخاطبها بصيغة الألفة ، بل بالصيغة الرسمية المتكلفة . على أن عيونهما تلاقت وكانت تتخاطب بألفة حميمة ، وتتبادل القبل الرقيقة . ونظراتها ساءلته أن يصفح عنها ، لأنها جرؤت ، عن طريق ناتاشا ، أن تذكره بوعده ، ثم شكرته نظراتها على حبه . وكانت نظراته تشكر لها أن منحته حريته ، وتقول لها أنه لن يكف أبداً عن حبها ، أياً كان الأمر ، فذلك لمستحيل .

قالت ڤيرا ، وقد اختارت لحظة صمت فيها الجميع :

— ما أغرب أن سونيا ونيكولاس يكلمان أحدهما الآخر بصيغة رسمية الآن ، وكأنهما غرباء .

كانت ملاحظتها صحيحة ، شأنها دائماً ، وكانت كمعظم ملاحظاتها تُشعر الجميع بالحرج ، لا سونيا وحدها ، ونيكولاس ، وناتاشا ، بل حتى الكونتيسة العجوز التي تضرج وجهها كبنت صغيرة ، فقد كانت تخشى هذا الحب الذي قد يعوق نيكولاس عن زواج باهر .

وظهر دينيزوف في غرفة الاستقبال ، لدهشة روستوف ، وقد صفف شعره بالدهان ، وتعطر ، ولبس حلة جديدة ، وقد بدا في أناقته التي اتخذها قبل أن يدخل المعركة في الجبهة . وكان آنس وأكثر لطفاً مع السيدات والسادة مما كان ينتظر روستوف أبداً .

الفصل الثالث

عندما عاد نيكولاس روستوف من الجيش ، إلى موسكو ، لقى من أهله الترحيب الجدير بأن يلقاه بطل ، هو أوفى الأبناء ، هو نيكولينكا المحبوب ، واحتفى به أقرباؤه احتفاؤهم بفتى أنيس جذاب دمث الخلق ، واستقبله معارفه استقبال ملازم وسيم من الفرسان ، وراقص حاذق ، وشاب من أفضل شباب المدينة صلاحية للزواج .

كان آل روستوف على معرفة بكل الناس فى مجتمع موسكو . وكان الكونت الشيخ قد أصاب مالا وافياً فى هذا العام ، إذ أعاد رهن كل ضياعه . ومن ثم حصل نيكولاس على جواد لنفسه ، وبنطلونات للركوب فى غاية الأناقة وعلى آخر زى ، لم يحصل على مثلها أحد فى موسكو بعد ، وحذاء من آخر طراز ، مدبب الطرف جداً ، وبه مهماز صغير . وراح ينفق وقته لاهياً مرحاً . وبعد فترة وجيزة ليوافق بين نفسه وأحوال حياته المألوفة القديمة ، وجد نيكولاس أن العودة إلى البيت سارة حقاً . وكان يستشعر نفسه قد كبر ونضج كثيراً . أما يأسه لأنه كان قد فشل فى امتحان الدين ، واقتراضه مالاً من جافريل ليدفع أجر سائق زحافة ، وتقبيله سوليا خفية ، فقد كان يذكر ذلك كله كما يذكر أشياء صبيانية خلفها وراءه إلى بعيد ، بعداً سحيقاً . كان الآن ملازماً فى الفرسان ، فى سترة مطرزة بالفضة ، يتحلى بصليب سان چورج الذى يثاب به الجنود لبسالتهم فى المعركة . وكان يدرب جواداً هو يملكه ، للسباق ، فى صحبة رجال معروفين حق المعرفة ومحترمين وكبار فى السن ، من هواة السباق . وكان يعرف سيدة من سيدات الليل يزورها أحياناً فى المساء . وكان يرقص « المازوركا » فى قاعة رقص آل آرخاروف ويتحدث عن الحـــرب مع الفيلد مارشال

كامينسكى ، ويُلمّ بالنادى الانجليزى ، وعلى صلة حميمة بكولونيل فى الأربعين من عمره قدمه له دينيزوف .

وقد فتر حمو عاطفته نحو الامبراطور شيئاً ما فى موسكو . ولكنه إذ كان لايراه ولا تتاح له فرصة أن يراه ؛ غالباً مّا يتكلم عنه وعن حبه له ، فيفهم من حديثه أنه لم يقل كل شىء وأن فى شعوره نحو الامبراطور شيئاً لم يكن يسع كل الناس أن يفهموه ، وكان يشارك ، بكل روحه ، فى عبادة الامبراطور التى شاعت عندئذ فى موسكو فكان يقال عنه « الملاك المتجسد » .

وفى اثناء إقامة روستوف القصيرة فى موسكو ، قبل أن يعود للجيش ، لم تتوثق صلته بسونيا ، بل كان يبعد عنها . كانت حلوة جداً وعذبة . وواضح أنها تحبه حبا عميقاً . لكنه كان فى تلك الفترة من الشباب التى يبدو فيها أن هناك الكثير مما ينبغى عمله حتى لايعود هناك ثم وقت لأشياء من هذا القبيل وحيث يخشى الفتى أن يربط نفسه ، ويعتز بحريته ، فهو يحتاجها لأشياء أخرى ما أكثرها . وعندما كان يفكر فى سونيا أثناء إقامته فى موسكو ، كان يقول لنفسه :

— آه سيكون هناك ، وهناك الآن فعلا ، كثير من الفتيات مثلها ، فى مكان ما ، لست أعرفهن . ستتاح لى الكفاية من الوقت للتفكير فى الحب عندما أشاء . أما الآن فلا وقت عندى .

فضلا عن أنه كان يتوهم أن رفقة النساء مما يحط برجولته . وكان يذهب للرقص أو إلى مجتمعات السيدات متظاهرا أنه يفعل ذلك على الرغم منه . أما السباق ، والنادى الانجليزى ، والعربدة مع دينيزوف ، وزيارات بيت ما ، فذلك شىء آخر . وهو بالضبط ما يليق بفارس شاب جسور ..

وفى بداية مارس كان الكونت إيليا روستوف الشيخ منهمكاً فى

إعداد حفلة غداء تكريماً للأمير باجراتيون ، فى النادى الانجليزى .

كان الكونت يذرع القاعة جيئة وذهوباً ، فى الروب دى شامبر ، يصدر الأوامر إلى رئيس خدم النادى ، وإلى فيوكتيست الشهير ، رئيس طهاة النادى ، بشأن الكشك الماز ، والخيار الطازج . والفراولة ، واللحم العجالى، والسمك ، لهذا العشاء . كان الكونت عضواً فى النادى ، وفى مجلس إدارته ، منذ يوم أن أنشىء . وإليه عهد النادى بتنظيم إحتفال تكريماً لباجراتيون ، فقد كان القليل يعرفون كيف ينظمون احتفالاً كما يفعل ، على هذا المستوى من الكرم وحسن الضيافة ، والأندر من ذلك من هم على مقدرة ، واستعداد، أن يعتاضوا بمواردهم الخاصة مما قد يحوج الأمر لنجاح الحفل . وكان طاهى النادى ورئيس خدمه يصغيان إلى أوامر الكونت وقد تهلل وجهاها ، فقد كانا يعرفان أنهما لم يكونا ليستخلصا لأنفسهما، بهذا اليسر، ربحاً طيباً من غداء يتكلف بضعة آلاف من الروبلات ، إلا فى ظل مثل هذه الادارة .

— طيب إذن ، لا تنس أن يكون فى حساء الحمام ذؤابات ديوك ، كما تعرف !

فسأله الطاهى :

— أنقدم إذن ثلاث أطباق باردة ؟

فتأمل الكونت قليلا .

ثم قال وهو يثنى إصبعاً :

— لا يمكن أن نقدم أقل ـ نعم ، ثلاثة ... المايونيز ، واحد ...

فسأل رئيس الخدم :

— أطلبُ السمكة الكبيرة إذن ؟

— نعم ، لامفر، ماداموا لا يأخذون أقل منها . آه يا إلهى .. كدت أنسى . يجب أن نقدم صنفاً آخر .. آه يا للمصيبة .. !

ووضع رأسه بين يديه بعنف :

— من سيأتى لى بالزهور ؟ ديمترى ..! هيه ديمترى ..!

فلما ظهر ديمترى الوصيف القائم بكل شىء ، عند ندائه ، قال له .

— اجر الى عزبتنا فى موسكو ، اسرع وقل لماكسيم البستانى أن يشغّل الأقنان . قل له أن كل شىء فى البيوت الزجاجية يجب أن يؤتى به هنا مغلفاً فى الجوخ تغليفاً جيداً . يجب أن يكون عندى هنا مائتان من أصص الزهور ، يوم الجمعة .

وبعد أن أصدر عدة أوامر أخرى كان على وشك الذهاب الى « كونتيسته الصغيرة » يلتمس شيئا من راحة ، لكنه تذكر شيئاً آخر هاماً ، فعاد ونادى الطاهى ورئيس خدم النادى ، وأخذ يصدر الأوامر من جديد . وسمع عند الباب وقع خطى خفيفة ، وصلصلة مهماز ، ودخل الغرفة الكونت الشاب . وسيما ، مورداً ، له شارب أسمر صغير ، وقد استراح فيما هو واضح ، ولانَ عوده ، من حياته السهلة فى موسكو .

قال الشيخ بابتسامة ، كما لو كان يستشعر شيئاً من حرج أمام ابنه :

— آه يابنى ، إن رأسى فى دوامة ..! لو أنك ساعدتنى قليلا ..! يجب أن يكون عندى مغنون أيضا .. سأقدم الأوركسترا الخاص بى ، لكن ألا ينبغى أن نحصل على مغنية من الغجر أيضاً .؟ أنتم العسكريين تحبون أشياء من هذا القبيل .

فقال ابنه بابتسامة :

— حقاً يابابا ، أعتقد أن الأمير باجراتيون لم يشغل نفسه قبل معركة شون جرابرن أكثر مما تفعل الآن .

فتظاهر الكونت الشيخ بالغضب :

— نعم ، أنت تتكلم ، ولكن حاول بنفسك ..!

واستدر الكونت إلى الطاهى الذى كان ينظر نظرة احترام وفطنة ،

بعطف وانتباه ، الى الأب والابن ، وقال :

ـــ إلام صار الشبان هذه الأيام يافيوكتيست ، هيه ؟ يضحكون علينا نحن الشيوخ !

ـــ هذا صحيح ياصاحب السعادة ، كل ما عليهم أن يتناولوا عشاء طيبا ، أما إعداده وتقديمه فذاك ليس من شأنهم ..!

فهتف الكونت :

ـــ هذا صحيح ..! هذا صحيح ..!

وأمسك ابنه من يديه ، وصاح بمرح :

ـــ الآن وقعت عليك ، فخذ الزحافة وزوج الخيل على الفور ، واذهب الى بيت بيزوخوف وقل له «أرسلنى الكونت إيليا لأطلب فراولة وأناناس طازجة» فنحن لانستطيع الحصول عليها إلا منه . وهو ليس هناك بنفسه فعليك أن تذهب للأميرات ، واذهب من هناك الى راسجوليای ـ ايپاتكا الحوذى يعرف أين ـ وابحث عن إليوشكا الغجرى ، الذى رقص فى بيت الكونت آرلوف ، فى سترة قوزاقية بيضاء ، هل تتذكر ، احضره معك إلىّ .

فسأل نيكولاس ضاحكاً :

ـــ وأحضر البنات الغجريات معه ؟ الله .. الله ..!

فى تلك اللحظة دخلت القاعة آنا ميخايلوفنا ، بخطى لاوقع لها ، وبتلك النظرة المشغولة ، نظرة العمل والجد ، تلك النظرة المسيحية الوديعة ، على ذلك ، التى لا تبرح وجهها أبداً ، ومع أنها كانت تقع على الكونت ، كل يوم ، وهو يرتدى الروب دى شامبر ، فلم يكن دأبه أبداً الا أن يضطرب ويستميحها عذراً .

فقالت وهى تغمض عينيها بوداعة :

ـــ لا تهتم أبداً ياعزيزى الكونت . لكنى سأذهب بنفسى الى بيت بيزوخوف . فقد وصل پيير ، وسنحصل الآن على كل ما نريد من

بيوته الزجاجية . وأنا مضطرة لزيارته على أى حال . فقد أوصلني خطاباً من بوريس الحمد لله . بوريس الآن فى هيئة الأركان .

وابتهج الكونت لأن آنا ميخايلوفنا أخذت على عاتقها إحدى مهماته وأمر باعداد العربة الصغيرة المقفلة لها

— قولى لبيزوخوف أن يأتى . سأدرج اسمه . هل زوجته معه ؟

فرفعت آنا ميخايلوفنا عينيها ،وارتسم على وجهها حزن عميق .وقالت:

— آه ياصديق العزيز، إنه سىء الحظ جداً فلو صح مانسمعه لكان مخيفاً . من كان يحلم بمثل هذا عندما كنا نبتهج لسعادته وهنائه ؟ ومثل هذه الروح الساميه الملائكية ، بيزوحوف الشاب ..! نعم ، إننى أرثى له من كل قلبى ، وسأحاول أن أعطيه ما يسعنى من عزاء .

فسأل كل من الشيخ والشاب .

— ما — ما الحكايه ؟

فتنهدت آنا ميخايلوفنا بعمق

وقالت بهمس ملىء بالسر :

— يقولون أن دولوخوف ، ابن مارى ايفانوفنا ، قد اساء إلى سمعتها تماماً . كان پيير قد عنى به ، ودعاه إلى بيته فى بطرسبرج ،والآن... جاءت هنا وخلفها ذلك الشيطان ..!

كانت تريد أن تبدى عطفها على پيير ، لكن نبرات صوتها التى لم تكن تتعمدها ، ونصف ابتسامة على شفتيها ، كانت تنم عن عطفها على ذلك الشيطان ، كما دعت دولوخوف .

— يقولون أن پيير قد تهدم تماماً من هذه المصيبة .

— يا إلهى ..! ولكن قولى له مع ذلك أن يأتى إلى النادى — وسوف ينزاح كل ذلك عنه . فستكون حفلة هائلة .

وفى الغداة ، اليوم الثالث من مارس بعد الساعة الواحدة مساء بقليل، كان هناك مائتان وخمسون من أعضاء النادى الانجليزى، وخمسون ضيفاً ، فى انتظار ضيف الشرف ، وبطل حملة النمسا ، الأمير باجراتيون ، على الغداء .

كانت موسكو قد تحيرت واختلط عليها الأمر. عند وصول أول أخبار موقعة أوسترلتز . كان الروس . فى ذلك الوقت ، قد ألفوا الانتصارات، حتى أن البعض عند مايتلقى أخبار هزيمة ، ما كان ليصدقها ، فى حين كان الآخرون يحاولون أن يتلمسوا تفسيراً خارقاً لمثل هذا الحدث الغريب . وفى النادى الانجليزى ، حيث كان يتجمع كل علية القوم ممن يشغلون المراكز الهامة ويحيطون بدقائق الأمور ، وعندما بدأت الأخبار تصل فى ديسمبر ، لم يأت للحرب أو الموقعة الأخيرة أى ذكر فى الحديث ، كما لو كانوا مشتركين جميعاً فى مؤامرة على الصمت، أما أولئك الذين كانوا يوجهون نبرة الحديث ــ الكونت روستوپشين ، والأمير يورى دولجوريكوف ــ وڤاليوف ، والكونت ماركوف ، والأمير ڤيازمسكى ، فلم يظهروا فى النادى ، بل كانوا يلتقون فى البيوت ، فى دوائر حميمة . وبقى أهل موسكو الذين يأخذون من غيرهم آراءهم ، ومنهم إيليا روستوف ، دون رأى محدد فى موضوع الحرب فترة من الزمن . ودون قادة . كان أهل موسكو يحسون أن شيئاً ما لايجرى على سننه ، وأن الحديث عن الأخبار السيئة أمر شاق ، فيحسن إذن أن يلتزموا الصمت . على أنه بعد فترة من الزمن ، وبالضبط كما يخرج المحلفون من غرفة المداولة ، عاد أصحاب الرأى فى النادى الى الظهور ، وأخذ الجميع يتكلمون بوضوح وتحديد . وُجدت الأسباب لهذا الحدث المستحيل الذى لم يسمع به من قبل، حدث هزيمة حاقت بروسيا، وفاء كل شىء إلى الوضوح، ونفس الشىء أخذ يقال فى كل أركان موسكو. كانت هذه الأسباب هى خيانة النمسويين، وقوميسارية

قاصرة عن النهوض باعبائها ،وخيانة برسبيسڤسكى البولندى ، ولانجيرون الفرنسى ، وعجز كوتوزوف ثم — وذلك همساً — شباب القيصر وقلة خبرته ، فقد كان يثق بأناس لاقدر ولا قيمة لهم . أما الجيش ، الجيش الروسى ، فقد كان الجميع يصرحون بأنه جيش باهر وقد أتى بمعجزات من البسالة ، وكان الجنود والضباط والقادة أبطالاً . أما بطل الأبطال فهو الأمير باجراتيون ، وقد لمع فى حكاية شون جرابيرن ، والتقهقر من أوسترلتز ، حيث انسحب وحده بجيشه دون أن ينكسر أو يصاب بخسارة ، ورد طوال اليوم قوة معادية تفوقه عدداً مرتين ومما أفضى إلى اختيار باجراتيون بطلاً فى موسكو أنه كان غريباً فى المدينة لاصلة له بأحد فيها . وفى شخصه كان يكرّم الجندى الروسى البسيط الذى لاصلة له بأحد ولا دسائس تدور حوله ، والرجل الذى تربطه ذكريات حملة إيطاليا باسم سوڤوروف . فضلا عن أن تكريم باجراتيون كان أمثل وسيلة لابداء النفور من كوتوزوف

قال شينيشين ، ببراعة منطقية ، مقلداً ڤولتير :

— لو لم يكن باجراتيون موجوداً لكان من الضرورى أن نخترعه .

ولم يقل أحد شيئاً عن كوتوزوف ، الا البعض الذين كانوا ينالونه بالسوء همساً ، ويسمونه فى البلاط الغول العجوز وخيال المقاتة .

وكانت موسكو كلها تردد كلمة الأمير دولجوريكوف :

— طالما اشتغلت بالحدادة اكتويت بالنار .

فى إيماءة إلى العزاء عن هزيمتنا بذكرى الانتصارات السابقة ، كما كانت تردد كلمة روستوپشين أن الجنود الفرنسيين يجب حثهم على القتال بكلمات طنانة ، والألمانيين بحجج منطقية تبرهن لهم أن الفرار أخطر من الزحف . أما الجنود الروس فلا يحتاجون إلا لمن يكبح جماحهم ويوقفهم عن الزحف : وفى كل ركن كانت تسمع دعابات وملح طريفة وجديدة عن أمثلة فردية

للبطولة التي أبداها ضباطنا وجنودنا في أوسترلتز : فأحدهم أنقذ علماً ، وآخر قتل خمسة فرنسيين ، وثالث حشا بمفرده خمسة مدافع . وكان من لا يعرفون بيرج يذكرون كيف جرح في يده اليمنى ، فاستل سيفه باليسرى وتقدم إلى الأمام . ولم يأت ذكر بولكونسكي ، وإنما أسف من كانوا على معرفة حميمة به ، لموته في مثل شبـــابه ، وقد خلف وراءه زوجة حاملاً مع أبيه الغريب الأطوار .

الفصل الثالث

في ذلك اليوم الثالث من مارس كانت كل غرف النادي الإنجليزي ممتلئة بطنين من الحديث ، كطنين أسراب النحل في الربيع . كان أعضاء النادي وضيوفه يتجولون هنـا وهناك ، يجلسون ، ويقفون ، يلتقون ويفترقون ، بعضهم في الزي الرسمي وبعضهم في زي المساء ، والقليل منهم هنـا وهناك شعرهم مذرور بالبودرة ويرتدون القفاطين الروسية . وكان يقف عند كل باب خدم قد ذروا شعرهم بالبودرة ، في زيهم الرسمي وأحذيتهم ذات الأبازيم وجواربهم الأنيقة ، يرقبون كل حركة وسكنة للزوار ، في لهفة وقلق ، على تمام الأهبة لأداء خدماتهم . وكان معظم الحاضرين رجالاً وقورين تقدمت بهم السن شيئاً ما ، وجوههم عريضة تنم عن اعتداد بالنفس ، وأصابعهم سمينة ، وأصواتهم وحركاتهم فيها عزم وقوة . وكانت هـذه الطبقة من الأعضاء والضيوف تجلس في أماكن مألوفة بعينها ، وتلتقي في طوائف مألوفة بعينها . وكان من الحـاضرين أقليـة من الضيوف العابرين ، معظمهم شبان ، ومنهم دينيزوف ، وروستوف ، ودولوخوف الذي عاد الآن ضابطاً في فرقة سيمينوف . كانت وجوه هؤلاء الشبان ،

وبخاصة وجوه العسكريين منهم ، يرتسم عليها ذلك التعبير من التنازل بإبداء الإحترام نحو من هو أكبر منهم سناً . فيلوح أنهم يقولون لهـذا الجيل القديم :

— نحن على استعداد لأن نحترمكم ونكرمكم ، ولـكن تذكروا مع ذلك أن المستقبل لنا

وكان نسفيتسكى هناك ، فهو عضو قديم فى النادي . أما پيير ، وقد كان ترك شعره يطول،ونبذ نظارته ، بناء على أمر زوجته ، فكان يجول فى الحجرات ، أنيق الملبس،وإن كان يلوح حزيناً كئيباً . وكان يحيط به هنا ، كما يحيط به فى أى مكان ، جو من الخضوع والعنوّ لثروته ، وكان قد ألف أن يتعالى علىهؤلاء القوم ويسود فيهم، فـكان يعالجهم بازدراء ، وهو غائب الذهن .

وكان ينبغى ، فى سنه ، أن ينتمى إلى الشبان ، لـكنه كان ينتمى ، بثروته ونفوذه ، إلى طوائف الضيوف الشيوخ المبجلين ، ومن ثم كان يتنقل من طائفة منها إلى أخرى . وكان بعض الشيوخ من أهم الضيوف وأعلاهم مقاماً ، مركزاً لجماعات كان يدنو منها الغرباء أنفسهم باحترام ، حتى يسمعوا أصوات هؤلاء الرجال المعروفين .

وتحلقت أكبر الجماعات حول الـكونت روستوپشين ، وڤاليوف ، وناريشكين

كان روستوپشين يصف كيف غُلب الروس علىأمرهم بفرار النمسويين، فاضطروا إلى اقتحام طريقهم ، فى وسطهم ، بأسنة الرماح

وكان ڤاليوف يحكى ، فى نبرة الافضاء بأسرار حميمة ، أن أوفاروف أرسل به من بطرسبرج ليتحقق ممّ تفـكر فيه موسكو عن أوسترلتز .

وفى حلقـة ثالثة كان ناريشكين يتكلم عن اجتماع مجلس الحرب النمسوى ، حيث صاح سوڤوروف كالديك ، رداً على ما كان يقول القادة

المنسوبون من هراء . أما شينيشين فقد كان يقف على مقربة ، يعالج أن يقول نكتة ، فقال أن كوتوزوف ، كما يظهر ، أخفق فى أن يتعلم من سوفوروف شيئاً فى بساطة فن الصياح كالديك على أن الأعضاء الأكبر منه سناً حدجوه بنظرات قاسية على دعابته . فأشعروه بأنه من غير اللائق أن يتكلم على هذا النحو عن كوتوزوف ، فى هذا المكان ، وهذا اليوم .

وكان الكونت إيليا روستوف ، منشغلا وعلى عجلة من أمره ، يجول بحذائه الطرى ، بين غرف الطعام والاستقبال يحيى الناس المهمين وغير المهمين منهم ، مسرعاً ، وكان يعرفهم جميعاً ، كما لو كانوا جميعاً على قدم المساواة ، فى حين كانت عيناه ، بين الفينة والفينة ، تبحثان عن ابنه الرشيق المتين البنيان ، فتستقران عليه لحظة ، وهو يغمز له فى مرح كان روستوف الشاب يقف إلى إحدى النوافذ ، مع دولوخوف . فقد تعرف إليه أخيراً ، وكان يقدره تقديراً كبيراً . وأقبل عليهما الكونت الشيخ وضغط يد دولوخوف :

— تفضل بزيارتنا ، أرجوك . . أنت تعرف ابنى الشجاع . . كنتما معاً هناك ، تلعبان أدوار الأبطال . .

ثم استدار إلى شيخ كان يمر به قائلا :

— آه ، فاسيلى إيجناتوفيتش ، كيف حالك ياشيخ .. ؟

ولكنه قبل أن يتم تحيته قامت حركة ولغط شامل ، وأقبل خادم يجرى ، وأعلن وهو مفزع الوجه :

— إنه وصل .. !

لصلت الاجراس ، واندفع رؤساء الخدم الى الامام ، وكالشعير الذى يدفع به فى مجرفة واحدة ، تجمع الضيوف المتناثرون فى شق الغرف ، واحتشدوا فى غرفة الاستقبال الكبير عند باب قاعة الرقص .

وظهر باجراتيون فى مدخل باب الردهة ، من غير قبعة ولا سيف ،

فقد سلمهما ، وفقاً لعادات النادى ، إلى البواب لم يكن يرتدى القلنسوة المصنوعة من فرو الحمل على رأسه ، ولا السوط المعلق على كتفه ، كما كان روستوف قد رآه عشية معركة أوسترلتز ، بل كان يرتدى حلة رسمية جديدة ضيقة محلاة بنياشين روسية وأجنبية ، ونجم سان جورج على الجانب الأيسر من صدره . وكان واضحاً أنه قبل أن يأتى للغداء مباشرة كان قد أصلح من شعره وسوالفه ، فانتسخ مظهره ، وساء شكلا ، وكان فى مظهره ثمة شىء من الاحتفال والفرح الساذج ، ذلك مع ملامحه الحازمة التى تنم عن رجولة ، يكسبه تعبيراً مضحكاً نوعاً ما . وتوقف بيكليشيف وأوڤاروف ، وقد وصلا معه عند المدخل، ليتيحا له الدخول أولاً بصفته ضيف الشرف . وأحرج باجراتيون فلم يكن يريد أن يستغل هـذه المجاملة منهما ، فنجم عن ذلك شىء من التعويق عند الأبواب ، لـكنه فى النهاية دخل أولاً وسار خجولاً ومحرجاً ، على أرض غرفة الاستقبال الباركيه ،لايدرى مايفعل بيديه ، فقد كان يألف أكثر من ذلك ، أن يسير فى حقل محروث تحت النيران ، كما فعل على رأس فرقة كورسك فى شون جرابرن ، وكان ليجد ذلك أسهل وأيسر . واستقبله أعضاء اللجنة على الباب الأول ، وأعربوا عن سرورهم لمرأى ضيفهم المبجل ، ثم استحوذوا عليه ، إن صح القول ، دون انتظار لرد منه ، وأحدقوا به ، وقادوه إلى غرفة الاستقبال . كان من المستحيل فى أول الأمر دخول غرفة الاستقبال ، من زحمة الأعضاء والضيوف الذين كانوا يتدافعون ، ويحاولون أن يملأوا أعينهم من باجراتيون من فوق أكتاف بعضهم البعض ، كما لو كان حيـواناً نادراً . وكان الـكونت إيليا روستوف يضحك ويردد :

— أفسح الطريق ياولدى العزيز . ! أفسح الطريق ، أفسح الطريق . !

وهو يزحم الحشد بقوة وعزم تفوق الآخرين جميعاً ، فقاد الضيوف إلى غرفة الاستقبال ، وأجلسهم على الأريكة الرئيسية ، وأتى علية القوم وأكبر

الأعضاء قدراً ، يضيقون الخناق على الضيوف الجدد ، فشق الكونت إيليا طريقه مرة أخرى خلال الزحمة وخرج من غرفة الاستقبال وعاد إلى الظهور بعد دقيقة، ومعه آخر من أعضاء اللجنة ، يحمل صينية فضية كبيرة قدمها للأمير باجراتيون . وكان على الصينية أشعار كتبت وطبعت تكريماً للبطل . فلما رأى باجراتيون الصينية . أجال بصره فى قلق ، كما لو كان يبحث عن نجدة . لكن العيون جميعاً كانت تطلب منه أن يعنو . فأحس بنفسه تحت سيطرتها ، وأخذ الصينية بعزم ، بكلتا يديه ، ونظر بعتب وصرامة إلى الكونت الذى قدمها له . وتقدم أحد الناس وأخذ الطبق من باجراتيون ، فى كياسة ــ وإلا لظل ممسكاً به فيما يظن حتى المساء ، وذهب للغداء به ــ ولفت نظره إلى الأشعار

وبدا كأن باجراتيون يقول :

ــ حسناً ، سأقرأها إذن .

وثبت عينيه المنهكتين على الورقة ، وجعل يقرأ وقد اتخذ مظهراً جاداً جامداً . لكن صاحب الشعر نفسه أخذ الورقة ، وبدأ يقرأ بصوت عال . فأحنى باجراتيون رأسه ، وأصغى(*) :

عسى زمان اسكندر يسود فيه المجد والسؤدد
ويحمى الله درع البطولة فى عرشه
يا طيب القلب ، كن خصماً مهيباً
ريفيوس أنت فى الحمى ، وقيصر فى ميدان الوغى
إن نابليون فى بزوغ نجمه
يعرف الآن من باجراتيون
وما عاد يعدو على أبطالنا الروس

(*) ينبغى أن يلاحظ هنا أن كل ماقرىء وأنشد من شعر فى هذه المأدبة ركيك جداً ، فى الاصل

على أنه قبل أن يفرغ من قراءته جاء حاجب يعلن فى صوت كالرعد أن الغداء معد . وانفتح الباب وجاءت من غرفة الطعام نغمات البولونيز الرنانة :

هللو هللوا يا جنـود الحمى
أرعدى يا رعود .
وابرقى بالظفر . . !

وحدج الـكونت روستوف بنظرة غاضبة صاحب الشعر الذى مضى يقرأ أشعاره ، وانحنى لباجراتيون . ونهض الجميع ، وهم يحسون أن الغداء أهم من الشعر ، وتقدم باجرايتون الضيوف جميعاً ، مرة أخرى ، إلى الغداء وأجلس فى مكان الشرف بين اثنين يحملان اسم الكسندر — بيكليشيف ، ونار يشكين — فى إيماءة لها دلالتها إلى اسم العاهل . واتخذ ثلاثمائة شخص أماكنهم فى غرفة الطعام . وفقاً لرتبهم وأهميتهم ، فالأكبر قدراً أقرب إلى الضيف المحتفى به ، بنفس الشكل الطبيعى الذى تنحدر به المياة أعمق تحدر حيث تنخفض الأرض وتغور .

وقبل الغداء مباشرة قدم الـكونت إيليا روستوف ابنة إلى باجراتيون فعرفه الأخير وقال له بضع كلمات مفككة الأواصر محرجة ، شأن كل ما قال يومها ، فنظر الـكونت إيليا بفخار وفرح حواليه ، بينما كان باجراتيون يحدث ابنه .

وكان نيكولاس روستوف ، ودينيزوف ، وصديقه الجديد دولوخوف ، يجلسون فى منتصف المائدة تقريبا ، وفى مواجهتهم جلس پيير بجانب الأمير نسفتسكى ، وكان الكونت إيليا روستوف مع سائر أعضاء اللجنة يجلس فى مواجهة باجراتيون فاحتفى بالأمير بوصفه خير ممثل لكرم موسكو نفسها وحسن ضيافتها .

لم تذهب جهوده فى غير طائل . وكان الغداء رائعا فى كل صنوفه سواء منها الصيامى أو غيره ، لكنه لم يكن ليستطيع أن يحس بالراحة تماما ، حتى

نهاية المأدبة ، كان يغمز للساقى ، ويهمس بتوجيهاته للخدم وينتظر كل طبق بشىء من القلق والتوجس. على أن كل شىء كان ممتازا . فلما جاء الدور الثانى من الغذاء ، ويتكون أساساً من سمكة من نوع الحفيش، وهى سمكة شاهقة ضخمة، تضرج لمرآها وجه الكونت إيليا روستوف بسرور وامتلاء بالنفس . وجعل الخدم يفرقعون السدادات ويملأون أقداح الشمبانيا . وبعد تقديم السمكة التى أثارت شيئاً من اللغط، تبادل الكونت النظرات مع أعضاء اللجنة الآخرين ، وهمس :

— ستكون هناك أنخاب كثيرة، حان الوقت للبدء .

وأخذ كأسه ونهض . فصمت الجميع فى انتظار ماسوف يقول .

وهتف :

— فى صحة عاهلنا الامبراطور ..!

وتندت عيناه ألعطوفتان الطيبتان ، فى نفس اللحظة ، بدموع الفرح والحماس . وعزفت الأوركسترا على الفور «هللوا هللوا ياجنود الحمى ..» ونهض الجميع وهتفوا « هوراه .. ! » ونهض باجراتيون أيضا وهتف : «هوراه ..! » بنفس الصوت الذى هتف به فى الميدان عند شون جرابيرن. وكان فى الوسع سماع صوت روستوف الشاب عالياً بالحماس فوق الثلاثمائة صوت الأخرى ، وأوشك أن يبكى ، وهو يجأر بصوت كالرعد :

— فى صحة عاهلنا الامبراطور ..! هوراه .. !

وأفرغ كأسه فى جرعة واحدة وطوح به إلى الأرض . وتبعه كثيرون، واستمرت الصيحات العالية فترة طويلة ، فلما خفتت حدة الصياح كنس الخدم الزجاج المكسور وعاد الجميع إلى الجلوس باسمين لما أحدثوه من ضجة ، يتبادلون التعليقات . ونهض الكونت الشيخ مرة أخرى وألقى نظرة إلى المذكرة الموضوعة إلى جوار طبقه . واقترح نخباً :

— فى صحة بطل حملتنا الأخيرة . الأمير پيتر إيڤانوڤيتش باجراتيون .!

وتندت عيناه الزرقاوان مرة أخرى ، وهتفت الثلاثمائة صوت مرة

أخرى « هوراه.. ! » على أن فرقة من المغنين، بدلا من الأوركسترا، أخذت تنشد أغنية ألفها پول إيڤا نوڤيتش كوتوزوف : (*)

سنشق الطريق
يا جنود الروس
نصرنا مضمون
يا شداد القلوب
إن باجراتيون
قاهرٌ للعدا ... !

وما أن فرغ الغناء حتى اقترح نخبٌ آخر ، وآخر ، وازداد الانفعال بالكونت إيليا روستوف ، وطوح بالمزيد من الأقداح ليتحطم المزيد من الزجاج ، وازداد ارتفاع الصياح . وشربوا أنخاب بيكلشيف ، وناريشكين ، وأوڤاروف ، ودلجوريكوف ، وأپراكسين ، وڤاليوف ، ونخب اللجنة ، وجميع أعضاء النادى ، وجميع ضيوف النادى ، ونخب الكونت إيليا روستوف على حدة فى النهاية ، بوصفه القائم على تنظيم الحفل . وعند هـذا النخب اخرج الكونت منديله ، وغطى وجهه ، وأجهش بالبكاء الصريح .

الفصل الرابع

كان پيير يجلس فى مواجهة دولوخوف ونيكولاس روستوف . وكان ، كالمعتاد ، يقبل على الطعام والشراب كثيراً ، مشغوفا بهما ومنهوماً إليهما . إلا أن أولئك الذين كانوا على معرفة حميمة به لا حظوا أن تغيراً كبيراً قد طرأ عليه فى ذلك اليوم . كان صامتاً طوال الغداء ، يجيل النظر حواليه ، ويطرف بعينيه ، مقطب الوجه ، أو يظل يدعك قصبة أنفه ، بعينين

(*) پول إيڤانوڤيتش كوتوزوف غير القائد العام ميشل أ . كوتوزوف .

شاخصتين ، ونظرة تائهة غائبة تماماً . وكان على اكتئاب وعتامة . وكان يلوح كأنه لا يرى أو يسمع شيئاً مما يدور حوله ، وتغرقه مشكلة محزنة لم تنته إلى حل .

كانت المشكلة التي تعذبه ، ولم تصل إلى حل ، ناجمة عن تلميحات أومأت بها الأميرة ، بنت عمه ، في موسكو ، إلى علاقة دولوخوف الحميمة بزوجته ، وعن خطاب مجهّل التوقيع تلقاه ذلك الصباح قيل فيه ، بالأسلوب الهازل الوضيع الشائع في الخطابات المجهلة التوقيع ، أنه لا يحسن النظر من خلال نظارته ، على أن صلة زوجة بدولوخوف لم تعد خافية إلا عليه وحده . وكان پيير ينكر كل الانكار تلميحات الأميرة والخطاب جميعاً ، لكنه الآن كان يخشى أن ينظر إلى دولوخوف الذى يجلس قبالته . وكلما وقع أن التقت عيناه بعيني دولوخوف الوسيمتين الوقحتين ، أحس پيير شيئاً مروعاً بشعاً يهب في روحه ، وأشاح ببصره سريعاً واستعاد ، عن غير عمد منه ، ماضي زوجه وعلاقتها بدولوخوف، فرأى بوضوح أن ما قيل في الخطاب قد يكون صحيحاً ، لو أنه لم يكن يتعلق بزوجته هو . وتذكر ، عن غير عمد ، كيف عاد دولوخوف ، وقد استرجع كل مركزه القديم بعد الحملة ، إلى بطرسبرج ، وأتى بزوره. كان دولوخوف قد استفاد من علاقات الود القائمة بينه وبين پيير ، كزميل من زملاء العربدة واللهو، فجاء إلى بيته، مباشرة ، واستضافه پيير ، وأقرضه مالاً . وتذكر پيير كيف أعربت هيلين ، باسمة ، عن استنكارها لبقاء دولوحوف في بيتهم ، وكيف أطرى دولوخوف أمامه بسخرية على جمال زوجته ، ثم لم يغادرهما يوماً واحداً منذ ذلك الحين حتى مجيئهما إلى موسكو .

وفكر پيير :

— نعم ، إنه وسيم جداً . وأنا خبير به، ولسوف يسره بصفة خاصة أن

يلوث شرف اسمى ، ويعرضنى للهزؤ ، بالضبط لأنى بذلت جهدى من أجله ، وصادقته ، وساعدته . أننى أعرف وأفهم أى حرافة ولذة يضيفها ذاك إلى سروره بخيانتى ، لو كان ذلك حقاً . نعم ، لو كان ذلك حقاً ، لـكننى لا أصدقه . لا حق لى ، ولا أستطيع أن أصدقه .

وتذكر التعبير الذى كان يرتسم على وجه دولوخوف ، فى لحظات قسوته ، كما حدث عندما ربط العسكرى بالدب ، وأسقطهما فى الماء ، أو عند ما تحدى رجلاً للمبارزة ، دون ما سبب ، أو أطلق الرصاص على حصان أحد صبية عربات البريد . ذلك التعبير كان يرتسم كثيراً على وجه دولوخوف عند ما ينظر إليه .

فـكر پيير :

— نعم ، إنه وغد، وقتلُ رجـلٍ لايعنى عنده شيئاً . ولابد أنه يبدو له أن الجميع يخشونه ، وذلك لابد يسره . ولابد يظن أننى أيضاً خائف منه — وفى الواقع أنا خائف منه .

وأحس ، مرة أخرى ، شيئاً مروعاً بشعا يهب فى روحه . كان دولوخوف ، ودينيزوف ، وروستوف ، يجلسون الآن أمام پيير ، ويبدون فى غاية المرح . كان روستوف يتحدث بمرح إلى صديقين ، أحدهما فارس جسور والآخر مبارز وعربيد شهير ، وكان بين الحين والحين يرمق پيير بسخرية . فقد كان شكله الضخم ، المهموم ، السارح ، شيئاً بارزاً ملحوظاً جداً فى الغداء . كان روستوف ينظر بعداء إلى پيير . أولاً لأن پيير كان يلوح فى عينيه ، وهو ضابط من الفرسان ، مدنياً غنياً ، وزوجاً لاحدى الجميلات الشهيرات، وبكلمة واحده : امرأة عجوزاً ، ثانياً لأن پيير ، فى همومه وسرحان باله ، لم يتعرف إلى روستوف ولم يرد على تحيته . فلما جاء نخب صحة الامبراطور ، لم ينهض پيير ، أو يرفع كأسه ، فقد كان التفكير يستغرقه .

فصاح روستوف وهو ينظر إليه فى سورة من الغيظ والحنق :

— ما بالك ؟ ألا تسمع أنه نخب صحة صاحب الجلالة الامبراطور ؟

تنهد پيير ، ونهض بخضوع ، وأفرغ كأسه ، وانتظر حتى عاد الجميع إلى الجلوس ، فاستدار بابتسامته الطيبة إلى رستوف ، وقال :

— يا لله ..! إننى لم أعرفك ..!

لكن روستوف كان مشغولاً بشى آخر . كان يهتف «هوراه .!»

قال دولوخوف لروستوف :

— لماذا لا تجدد صداقتك به ؟

فقال روستوف :

— عليه اللعنة ، إنه أحمق ..!

فقال دينيزوف :

— على المرء أن يصالح أزواج الجميلات .

لم يلتقط پيير ما كانوا يقولون . لكنه كان يعرف أنهم يتحدثون عنه . فاحمر وجهه ، وأدار وجهه .

قال دولوخوف :

— حسناً ، والآن فى صحة الجميلات ..!

واستدار إلى پيير ، بكأسه ، وقد اتخذ مظهراً جاداً ، وإن كانت تحوم حول أركان فمه ابتسامة ، وقال :

— هذا فى صحة الجميلات ، يا پيتركين .

ثم أضاف :

— وعشاقهن . !

فشرب پيير من كأسا ، خافض العينين ، دون أن ينظر إلى دولوخوف أو يرد عليه .

وكان الخادم يوزع أوراقاً بها أغنية كوتوزوف ، فوضع واحدة منها

أمام بيير ، فهو أحد كبار الضيوف .

وكان بيير يهم بأن يأخذها حينا انحنى دولوخوف إلى الأمام ، وانتزعها من يده ، وجعل يقرأها . فنظر بيير إلى دولوخوف ، وغض عينيه ، وهب فى روحه ذلك الشىء المروع البشع الذى عذبه طيلة الغداء ، واستأثر به . فأحنى كل جسمه الضخم عبر المائدة . وصاح :

— كيف تجرؤ تأخذها ؟

فلما سمع نسفيتسكى تلك الصيحة ، ورأى إلى من وجهت ، استدار هو وجاره إلى اليمين ، بسرعة وقلق ، نحو بيزوخوف .

وهمسا بأصوات مفزّعة :

— لا . ! لاتفعل ..! مابالك ؟

نظر دولوخوف إلى بيير بعينين قاستين ، صافيتين ، مرحتين ، وبابتسامته تلك التى تبدو كما لو كانت تقول :

— آه ..! هذا مايعجبنى ..!

وقال بوضوح :

— لن تأخذها ..!

فاختطف بيير الورقة ، شاحباً ، مرتعش الشفتين .

وندت عنه كلمات :

— أنت ..! أنت ..! ياوغد ..! إننى أتحداك ..!

ودفع كرسيه إلى الخلف ، ونهض من المائدة .

وفى نفس اللحظة التى فعل فيها ذلك ، وفاه بتلك الكلمات ، أحس بيير أن مسألة إثم زوجته التى كانت تعذبه طيلة اليوم ، قد أجيب عنها بالإيجاب ، نهائياً وبلا شبهة من شك . كان يمقتها ، وقد انفصل عنها إلى الأبد . وعلى الرغم من أن دينيزوف طلب إلى روستوف ألا يشترك فى المسألة، فقد قبل روستوف أن يكون شاهد دولوخوف، وبعد الغذاء بحث

ترتيبات المبارزة مع نسفيتسكى ، شاهد بيزوخوف . وعاد پيير إلى البيت . ولكن روستوف ، مع دولوخوف ، ودينيزوف ، لبثوا فى النادى حتى وقت متأخر ، يصغون إلى الغجر وأغانيهم .

قال دولوفوف وهو يودع روستوف فى شرفة النادى :

— حسناً إذن ، إلى الغد . فى سوكولنيكى .

فسأل روستوف :

— أنت تشعر بالاطمئنان تماماً ؟

فوقف دولوخوف :

— حسناً ، أنت ترى ، سأقول لك كل سر المبارزة ، فى كلمتين . إن كنت ستقوم بمبارزة ، فجلست تكتب وصية ، وخطابات عاطفية إلى أهلك ، وظننت أنك قد تموت ، فأنت أحمق ، وقد ضعت بالتأكيد. بل اذهب وقد عقدت العزم الحاسم على أن تقتل خصمك بأسرع وأقطع ما يمكن . فسيجرى كل شىء إذن على ما يرام . كما كان صائد الدببة عندنا فى كوستروما يقول لى « كل الناس تخاف من الدب ، ولكنك عندما ترى دباً ، يتلاشى خوفك تماماً . ولا تبقى لك إلا فكرة واحدة : ألا تتركه يفلت ..! » هذا ما أفعل . إلى الغد ياعزيزى(*) .

وفى الثامنة صباحاً من الغداة ذهب پيير ونسفيتسكى بالعربة إلى غابة سوكولنيكى ، فوجدا دولوخوف ، وروستوف ، ودينيزوف هناك . كان پيير يبدو بمظهر رجل ركبته هموم واعتبارات لاشأن لها بالمسألة التى يعالجها الآن . كان وجهه الضاوى النهوك أصفر اللون . وكان وضحاً أنه لم ينم ليلتها ، يجيل النظر حواليه ، مشتت الخاطر ، ويزوى ما بين عينيه كما لو كانت الشمس تزيغ بصره . كان يستغرقه كل الاستغراق فكرتان :

(*) بالفرنسية فى الأصل .

إثم زوجته الذى لم يكن لديه أدنى شك فيه، بعد ليلته الأرقة، وانتفاء الاثم عن دولوخوف الذى لم يـكن ثم ما يدعوه أن يصون شرف رجل لايعنى عنده شيئاً

كان يدور فى ذهن پيير :

— لعلنى فى مكانه كنت أفعل نفس الشىء ، بل من المؤكد أننى كنت لأفعله ، فلم هذه المبارزة إذن ، لم جريمة القتل هذه ؟ إما أن أقتله ، أو يصيبنى فى رأسى ، أو ركبتى ، أو مرفقى . الا أستطيع أن أمضى من هنا ، أهرب ، أدفن نفسى فى مكان ما ..؟

إلا أنه فى اللحظات التى كانت تروده فيها مثل هذه الأفـكار ، كان يسأل بطريقة بالغة الهدوء واضح فيهـا خلو البال ، تلهم الحاضرين بالاحترام :

— سيطول الأمر ؟ أكل شىء معد ؟

وعند ما أعد كل شىء وغرزت السيوف فى الثلج لتحد خطوط الحواجز ، وعبئت المسدسات ، أقبـل نسفيتسكى إلى پيير ، وقال بنبرات خجلة :

— لن أؤدى واجبى يا كونت ، ولن أبرر ثقتك بى وتشريفك لى باختيارى شاهدك ، إلا إذا اخبرتك بالحقيقة كلها فى هـذه اللحظة الخطيرة ، إننى أرى أن ليس ثم أساس كاف لهذه المسألة ، ولا لأن يسفك الدم من أجلها ... لم تـكن أنت محقاً ، محقاً تماماً ، كنت مندفعاً..

قال پـير :

— أوه نعم ، هذا من الغباوة بمكان ، إلى حد بشع .

فقال نسفيتسكى ، وقد كان كـكل الآخرين الذين تعذبهم المسألة ، وكـكل شخص فى مثل هذه الحالات ، لايعتقد ، بعد ، أن الأمر قد بلغ حد المبارزة الفعلية :

— إذن فاسمح لى أن أعبر عن أسفك ، وأنا واثق أن خصمك سيقبله . فأنت تعرف يا كونت أن من الأشرف بكثير أن يعترف المرء بخطئه عن أن يدع الأمر يغدو مستعصياً على الاصلاح . لا إهانة هناك فى كل من الجانبين . اسمح لى بأن أنقل ...

قال پيير :

— لا ..! فيم الكلام ؟ إن الأمر سواء .

ثم أضاف :

— أكل شىء معد ؟

وقال بابتسامة بلغت من اللطف قدراً عظيما :

— قل لى فقط أين أذهب ، وأين أطلق النار .

وأخذ المسدس فى يده ، وجعل يسأل عن طريقة قيام الزناد بعمله ، فلم يكن قد أمسك من قبل مسدساً فى يده — وهى حقيقة لم يكن يود الاعتراف بها .

فقال :

— آه نعم ، هكذا ، إننى أعرف ، نسيت فقط .

قال دولوخوف لدينيزوف — الذى كان يعالج الوصول إلى وفاق من جانبه :

— لا اعتذار بأى حال .

ومضى ، كذلك ، إلى البقعة المحددة .

كانت البقعة المختارة للمبارزة تقع على نحو ثمانين خطوة من الطريق ، حيث تركت الزحافات ، فى مكان براح صغير من غابة الصنوبر التى كساها الثلج الذائب ، فقد كان الصقيع أخذ يتكسر منذ بضع أيام . ووقف الخصمان تفرقهما قرابة أربعين خطوة ، على الجانب الأقصى من البقعة البراح . وكان الشاهدان قد قاسا الخطوات ، فتركا آثاراً فى الثلج

المبلل العميق بين المكان الذى كانا يقفان فيه ، وسيفى نسفيتسكى ودولوخوف وقد غُرزا فى الأرض، تفصلهما عشر خطوات، ليحدا مسافة الحاجز . وكان البرد يتساقط ، والجو مغيماً بالضباب ، ولا شى بالوسع أن يرى بعد أربعين خطوة .

كان كل شيء معداً منذ ثلاث دقائق ، لكنهم كانوا يتأخرون ويعوقون ، وكان الكل صامتين .

الفصل الخامس

قال دولوخوف :

— حسناً ، إبدأ ..!

فقال پيير ، ومازال يبتسم بنفس الطريقة :

— حسناً .

كان فى الجو إحساس بالوجل والخيفة . كان واضحاً أن المسألة التى بدأت بمثل هذه الخفة لم يعد بالوسع تحاميها بعد ، كانت تتخذ مجراها دون نظر إلى إرادة الناس . ذهب دينزوف أولاً إلى الحاجز ، وأعلن :

— لما كان الخصمان قد رفضا الصلح ، تقدموا من فضلكم . خذا مسدسيكما وعند كلمة ثلاثة ، إبدآ فى التقدم .

وهتف بغضب :

— وا — حد .! اثنيـ — ن ..! ثلاثة ..!

وخطا جانباً .

تقدم المتبارزان على الآثار المطروقة ، واقتربا ، أكثر فأكثر ، من أحدهما الآخر ، وقد بدآ يريان أحدهما الآخر من خلال الضباب . كان لهما الحق فى إطلاق النار عند ما يريدان ، أثناء اقترابهما من الحاجز .

سار دولوخوف ببطء ، دون أن يرفع مسدسه ، وهو يحد النظر ، بعينيه اللامعتين المتألقتين الزرقاوين إلى وجه خصمه . وكانت تتخايل على وجهه ابتسامته المألوفة .

قال پيير :

— إذن فأنا أستطيع إطلاق النار عندما أريد ..!

وعند كلمة « ثلاثة » تقدم إلى الأمام بسرعة وقد اخطأ آثار الأقدام وخطا على الثلج العميق . كان يمسك المسدس بيده اليمنى ، على طول ذراعه، خائفاً ، فيما يظهر ، من أن يصيب نفسه به . أما يده اليسرى فكان يردها إلى الخلف بحرص ، إذ كان يريد أن يعتمد يده اليمنى عليها ، ويعرف أنه لا ينبغي أن يفعل ذلك . فلما تقدم ست خطوات ، وشرد عن آثار الأقدام المطروقة إلى الثلج العميق ، نظر إلى قدميه ، ثم رمق دولوخوف بسرعة ، وثنى أصبعه ، كما قيل له ، وأطلق النار . لم يكن پيير ينتظر بالمرة مثل هذا الدوى المرتفع ، فارتجف لسماع الصوت، وابتسم لما خامره من شعور ، ووقف ساكنا . كان الدخان، وقد تكاثف بالضباب، يحول دونه وأن يرى شيئاً ، لحظة من الوقت ، على أنه لم يأت دوى تالٍ ، كما كان يتوقع . بل سمع خطوات دولوخوف المتسارعة . وظهرت قامته من خلال الدخان . كان يضغط إحدى يديه إلى جنبه الأيسر ، بينما تقبض الأخرى على مسدسه المتجه إلى تحت . كان وجهه شاحبا . وجرى روستوف نحوه وقال شيئا .

تمتم دولوخوف من بين أسنانه :

— لا ..! لم ينته الأمر بعد .

وبعد أن تعثر إلى الأمام بضع خطوات مترنحة ، حتى بلغ السيف ، سقط على الثلج بجانبه . كانت يده اليسرى دامية ، فمسحها على سترته ، وأسند نفسه عليها . كان وجهه العابس شديد الشحوب ، يرتعش .

بدأ دولوخوف يقول :

— من فض ..

لكنه لم يستطع ، أولاً ، أن يكمل كلمته .

وقال بعد جهد :

— من فضلك .

لم يكد بيير يكاتم بنشيجه ، وبدأ يجرى نحو دولوخوف ، وكان على وشك أن يجتاز الحيز الواقع بين الحاجزين ، إذا هتف دولوخوف :

— ارجع إلى الحاجز ..!

فأدرك بيير ما كان يعنيه ، ووقف عند سيفه . لم تكن تفصلها إلا عشر خطوات . خفض دولوخوف رأسه إلى الثلج ، وقضم منه بنهم ، ورفع رأسه ، وسوى نفسه ، وجذب ساقيه وجلس ، محاولاً أن يجد لنفسه مركزاً ثابتا . كان يعص الثلج البارد ويبلعه ، وشفتاه ترتمشان ؛ لكن عينيه باسمتان ما تزالان ، تتألقان بالجهد والغيظ ، وهو يسيطر على ما بقى له من قوة . رفع مسدسه ، وصوبه .

هتف نسڤيتسكى :

— إلى جنب ..! إحمِ نفسك بمسدسك ..!

حتى دينيزوف هتف بخصمه :

— إحمِ نفسك ..!

وقف بيير ، بابتسامة وادعة من الرحمة والندم ، وقد بسط ذراعيه وساقيه بلا حول ولا قوة، يواجه دولوخوف مباشرة ، بصدره العريض ، وينظر إليه بأسى . أغمض دينيزوف ، وروستوف ، ونسڤيتسكى عيونهم . وفى نفس اللحظة سمعوا دوى الرصاصة ، وصيحة دولوخوف الغاضبة .

هتف دولوخوف :

— أخطأت ..!

ورقد عاجزاً بلا حيل ، ووجهه إلى الثلج .

أمسك بيير بيديه صدغيه ، واستدار ، ومضى إلى داخل الغابة ، يدب على الثلج العميق ، ويتمتم كلمات غير مترابطة ، يردد وهو يزم وجهه :

— حماقة . . جنون . . ! الموت . . أكاذيب .

فأوقفه نسفيتسكى وعاد به إلى البيت .

وذهب روستوف ودينيزوف بالجريح .

رقد دولوخوف فى الزحافة صامتاً مغمض العينين، ولم يجب بكلمة عن الأسئلة التى وجهت إليه . ولكنه عندما دخلوا موسكو ثاب إلى وعيه فجأة، ورفع رأسه بمشقة ، وأخذ بيد روستوف الذى كان يجلس بجواره . وبهت روستوف للمظهر الذى بدا على وجه دولوخوف ، وقد تغير تماماً ، وغدا ، على غير المنتظر ، سعيداً رقيقاً حانيا .

وسأله :

— بم تحس ؟

قال دولوخوف بصوت تتردد شهقاته :

— سيء . . ! لكن ليس الأمر هذا يا صديق — أين نحن ؟ فى موسكو ، أعرف . لست أهمّ أنا ، لكنى قتلتها ، قتلتُ . . لن تتغلب على هذا ، هى ، لن تعيش بعد ...

فسأل روستوف :

— من ؟

— أمى . . ! أمى ، ملاكى ، أمى وملاكى المعبود .

وضغط دولوخوف على يد روستوف ، وأجهش باكيا .

فلما أفرخ جأشه قليلا ، شرح لروستوف أنه كان يعيش مع أمه التى إن رأته يموت فلن تعيش بعده . وتوسل إلى روستوف أن يذهب يمهد لها تلقى الخبر .

. فضى روستوف يلبي طلبه ، وعرف ، لكبير دهشته ، أن دولوخوف الماجن العربيد ، دولوخوف الوغد ، كان يعيش فى موسكو مع أم عجوز ، وأخت حدباء . وكان أحنى الأبناء قلباً ، وأرق الاخوة عاطفة .

الفصل السادس

لم يكن پيير قد رأى زوجته وحدها ، فى العهد الأخير ، إلا نادراً . كان بيتهم ، سواء فى بطرسبرج أو فى موسكو ، مليئاً بالزوار دائماً . وفى الليلة التالية للمبارزة لم يذهب إلى فراشه ، بل بقى ، كما كان يفعل غالباً ، فى غرفة أبيه ، تلك الغرفة الضخمة الواسعة التى مات فيها الكونت بيزوخوف .

رقد على الأريكة وفى نيته أن ينام ، وينسى كل ما حدث له ، لكنه لم يستطع . فقد هبت فى نفسه فجأة عاصفة من المشاعر والأفكار والذكريات ، حتى لم يكن ليسعه أن يغفى ، بل أن يبقى فى مكان بعينه ، وكان عليه أن يهب واقفاً ، ويذرع الغرفة بخطى سراع . كان يتوهم حيناً أنه يراها فى الأيام الأولى من زواجها ، بكتفيها العاريتين ، ونظرة مسترخية مشبوبة الأوار فى عينيها ، ثم يرى بجانبها ، على الفور ، وجه دولوخوف الوسيم الوقاح الصلب الهازىء ، كما رآه فى الحفل ، ثم ذلك الوجه بعينه شاحبا مرتعشا يكابد الألم ، كما رآه عندما ترنح وسقط على الثلج .

وكان يسائل نفسه :

ـــ ماذا حدث ؟ لقد قتلت عشيقها ، نعم ، قتلت عشيق زوجتى . نعم ، هذا ما حدث ..! ولم ؟ كيف تأتى لى أن أفعل ؟

فأجابه صوت داخلى :

ـــ لأنك تزوجتها .

فتساءل :

— وما وجه اللوم علىَّ فى ذلك ؟

— فى زواجك بها دون أن تحبها . فى خداعك لنفسك ولها .

وتذكر ، فى وضوح هادىء ، تلك اللحظة بعد العشاء ، عند الأمير قاسيلى ، عندما قال تلك الكلمات التى ما كان أشق عليه أن يقولها : إننى أحبك .

ودار فى ذهنه :

— كل شىء نجمَ عن ذلك ..! بل أننى كنت أستشعر ذلك حينئذ . كنت أحس أن الأمر لم يكن على ذلك الوجه ، وأنه لم يكن لى الحق فى أن أفعل ما فعلت . وجاءت الأحداث مصداقا لذلك .

وتذكر شهر العسل الذى قضاه ، وتضرج وجهه للذكرى. وما أشد وضوح، وإذلال، ذكرى يوم بالذات بعد زواجه بقليل ، وأدعاها للخزى، عندما خرج من غرفة النوم إلى مكتبه، قبل الظهر بفترة وجيزة، فى الروب دى شامبر الحريرى ، ووجد رئيس خدمه فى المكتب ، فانحنى له هـذا الأخير باحترام ، ونظر إلى وجهه وإلى الروب ، وابتسم ابتسامة هينة ، كما لو كان يعرب عن فهمه فهماً يخالطه الاحترام،لما يشعر به سيده من سعادة.

وفكر پيير :

— وكم كان يغلب أن أشعر بالفخر بها ، الفخر بجمالها الجليل وكياستها الاجتماعية ، وكنت فخوراً بدارى حيث كانت تستقبل بطرسبرج جميعا ، فخوراً بجمالها ومنعتها على الاقتراب منها . فهذا إذن ما كنت أفخر به ..! كنت أتوهم حينذاك أننى لست أفهمها . وكم كان يغلب ، عنـدما أتأمل خلقها أن أقول لنفسى أننى اللوم لأننى لا أفهمها ، لا أفهم هذا الهدوء الدائم ، والرضا ، وانعدام كل اهتمام وكل رغبة . وإنما كان السر كله تلك الحقيقة المروعة ، أنها كانت امرأة خليعة . والآن قد قلت هذه الكلمة المروعة لنفسى اتضح كل شىء .

كان أناتول يأتى يقترض منها مالاً ، ويقبل كتفيها العاريتين ولم تكن تعطيه المال بل تدعه يقبلها . وكان أبوها يحاول مازحاً أن يستثير غيرتها ، فكانت تجيب ، بابتسامة هادئة ، أنها ليست من الغباء بحيث تغار ، وتقول عنى « فليفعل ما يشاء » وفى أحد الأيام سألتها عما إذا كانت تحس أعراض الحمل . فضحكت بازدراء وقالت أنها ليست من الحماقة بحيث تريد أطفالاً ، ولن يكون لها منى أطفال .

ثم استعاد فظاظة أفكارها وخشونتها ، وما كان يأتيها ، على الطبع ، من سوقية فى التعبير ، على أنها نشأت فى أرقى الأوساط الاجتماعية وأكثرها ارستقراطية .

كان من عادتها أن تقول :

ـــ لست بهذا الغباء .. طيب حاول .. هيا اذهب عنا ..(*)

وعند ما كان پيير يرى ما تلقاه من نجاح مع الرجال والنساء . صغاراً أو كباراً ، لم يكن يفهم لم لا يحبها .

قال لنفسه :

ـــ نعم ، لم أحبها قط .

وردد :

ـــ كنت أعرف أنها امرأة خليعة ، ولكنى لم أجسر أن أقر لنفسى بذلك . وها هو ذا دولوخوف الآن جالساً فى الثلج ، يعالج أن يغتصب ابتسامة ، وعساه يحتضر ، فى حين يقابل ندمى بنوع من التظاهر المفتعل بالشجاعة ..!

كان پيير من أولئك الذين لاينشدون صَفِيّاً يسرون إليه بمتاعبهم ، على الرغم مما يبدو عليهم من ضعف الشخصية فيما يُسمى . كان يتمثل

(*) بالفرنسية فى الأصل .

آلامه وعذابه ، وحده .

قال لنفسه :

— إنما الجرم كله ، عليها . وما ذاك ؟ لم ارتبطت بها ؟ لم قلت لها . «إنى أحبك» ؟ وتلك كذبة ، وأسوأ من الكذب؟ بلاء مدى الحياة ..؟ إنى مذنب ، وعلىّ أن أحتمل . أحتمل ماذا ؟ شائبة تشوب اسمى ؟ بلاء مدى الحياة ..؟ هذا هراء .. الشائبة التى تشوب اسمى وشرفى — هذا كله لا يتصل بى ،لايتصل بى أنا نفسى .

ودار فى ذهنه :

— لقد أعدم لويس السادس عشر لأنهم قالوا أنه عديم الشرف ، وأنه مجرم ، وكانوا محقين ، من وجهة نظرهم . كما كان أولئك الذين قدسوه وماتوا ميتة الشهداء من أجله ، محقين أيضاً . ثم قطع رأس روبسبيير لأنه طاغية من المحق ومن المخطىء ؟ لا أحد .. ! على أنك إذا كنت تعيش — فلتعش .. فغداً قد تموت كما عساى كنت قدمت منذ ساعة. أيستحق الأمر أن يعذب المرء نفسه ، فى حين ليس له إلا لحظة من من الحياة ، بإزاء الأبدية ؟

على أنه فى تلك اللحظة التى توهم فيها نفسه قد هدأت بمثل هذه الأفكار ، جاءته هى ، فى تصوره ، فجأة ، كما كانت تبدو فى تلك اللحظات التى أعرب فيها على أقوى وجه عن حبه غير الصادق لها ، فأحس الدم يتدفع إلى قلبه ، ولم يملك إلا أن ينهض مرة أخرى ، ويتحرك هنا وهناك ، ويحطم ويمزق كل ما تقع عليه يده . وما فتىء يردد لنفسه :

— لماذا قلت لها ذلك : « إنى أحبك » ؟

فلما قالها للمرة العاشرة ، خطرت له كلمات موليير : « كيف بالله

---

(١) بالفرنسية .

أوقع نفسه فى هذا المأزق ؟ » فأخذ يضحك على نفسه .

وفى المساء دعا إليه وصيفه ، وقال له أن يعد الحقائب للسفر إلى بطرسبرج . لم يكن يسعه أن يتصور كيف سيطيق الحديث إليها الآن . فقر عزمه على السفر من الغداة ، ويترك لها خطاباً ينبئها بنيته على الافتراق عنها فرقة بائنة .

ولما دخل الوصيف إلى غرفته فى الصباح التالى ، بالقهوة ، كان پيير نائماً على الأريكة وفى يده كتاب مفتوح .

فانتبه وأجال البصر حواليه ، هنيهة ، وعلى وجهه مظهر الفزع المجفل ، وقد أقصر عن أن يدرك أين كان .

قال الوصيف :

— قالت لى الكونتيسة أن أسأل ما إذا كنتم سعادتكم على استعداد لاستقبالها .

على أنه قبل أن يستطع پيير أن يقرر مايرسل به الوصيف من جواب دخلت إلى الغرفة الكونتيسة نفسها فى روب دى شامبر من الساتان الأبيض موشى بالفضة ، وقد صففت شعرها على نحو بسيط — ضفيرتان ضخمتان يدوران ، مرتين ، برأسها البديع كأنهما إكليل — وهى هادئة الروع ، جليلة المظهر ، إلا أن على جبينها الرخامى البارز شيئاً ما ، تغضن من السخط والحنق . وفى هدوئها الذى لا ينال منه منال ، لم تبدأ حديثها امام الوصيف . كانت قد عرفت بأمر المبارزة ، وجاءت فى سبيل الحديث عنها . وانتظرت حتى وضع الوصيف أدوات القهوة ، وغادر الغرفة . نظر إليها پيير على استحياء ، من فوق نظارته ، وعالج أن يواصل قراءته ، كأرنب تحدق به كلاب الصيد فيرد أذنيه إلى الخلف ، ويواصل قبوعه دون حراك أمام أعدائه . لكنه أحس أن ذلك مستحيل ولا معنى له ، فرمقها مرة أخرى ، على استحياء . لم تجلس ، بل نظرت إليه بابتسامة ازدراء ، فى انتظار أن يمضى الوصيف . وسألت فى صرامة :

— حسناً ، ما هذا الآن ؟ ماذا فعلت الآن ، يسرنى أن أعرف ذلك؟

فتلعثم پيير :

— أنا ؟ ماذا فعلت . . ؟

— فيبدو أنك بطل ، هيه ؟ قل لى الآن ، فيم كانت هذه المبارزة ؟ وعلام كنت تقصد أن تبرهن ؟ ماذا ؟ إننى أسألك .

فاستدار پيير ، فى ثقل ، على الأريكه ، وفتح فمه . لكنه لم يستطع أن يجيب .

فمضت هيلين تقول :

— ما دمت لا تريد أن تجيب ، فسأخبرك .. أنت تصدق كل ما يقال لك . وقد قيل لك ...

وضحكت هيلين ، وقالتها بالفرنسية ، فى عبارتها الجافية الواضحة ، قالت كلة « عشيق » عرضاً وبنفس البساطة التى تقول بها أية كلة :

— .. أن دولوخوف عشيق . فصدقت ..! حسناً ، علام برهنت ؟ أنك أحمق — أنك أبله ، ولكن الجميع يعرفون ذلك . وماذا ستكون النتيجة ؟ أننى سأصبح سخرية موسكو كلها ، وسيقول الجميع أنك سكرت فلم تعد تدرى ما تفعل ، فتحديت رجلا تغار منه ، دون سبب .

ورفعت هيلين صوتها ، وازداد انفعالها :

— رجلا يفضلك فى كل النواحى ...

فزمجر پيير :

— هم م ..! هم م . !

وهو يعبس دون أن ينظر إليها ، ودون أن تتحرك منه عضلة .

— وكيف أمكنك أن تصدق أنه عشيقى؟ ولم ؟ لأننى أحب أن أكون فى صحبته ؟ لو أنك كنت أذكى وألطف ، لآثرت صحبتك .

فتمتم پيير بصوت أجش :

— لاتتكلمى معى .. أرجوك

— لِمَ لا أتكلم ؟ أستطيع أن أتكلم كيفما أشاء وأقول لك بصراحة أنه ليس هنالك زوجات كثيرات ، أزواجهن مثلك ، ولا يتخذن عشاقاً ، لكننى لم أفعل .

همّ پيير بأن يقول شيئاً ، ونظر إليها بعينين لم تفهم تعبيرهما الغريب ، ثم رقد ثانية . كان فى تلك اللحظة يتألم ألماً جثمانياً ، كان ينوء بصدره ثقل ، ولم يكن فى وسعه أن يتنفس . كان يعرف أن عليه أن يفعل شيئاً ليضع حداً لهذا الألم ، لكنّ ما كان يريد أن يفعل ، كان شيئاً مروعاً جداً .

وتمتم فى صوت مكسور :

— يحسن أن ننفصل .

قالت هيلين :

— ننفصل ؟ حسنٌ جداً . على شرط أن تعطينى ثروة . ننفصل ..! هذا ما تخيفنى به ..!

وثب پيير من على الأريكة ، واندفع مترنحاً ، إليها .

وصاح :

— سأقتلك !

وأمسك بلوحة مائدة رخامية ، بقوة لم يحسها قط من قبل . وخطا نحوها خطوة واحدة ، وهو يشهر الكتلة .

انتسخ وجه هيلين وحال مروّعاً ، وصرخت ، ووثبت جانباً . وتبدّى طبع أبى پيير فيه ، وأحس سحر الجنون ولذته . فطوح بالكتلة الرخامية على الأرض ، وكسرها ، وانقضّ على هيلين بيديه المفتوحتين المشدودتين ، صائحاً :

— أخرجى ..!

بصوت مخيف حتى لقد سمعه البيت كله فى روع وهلع . ويعرف الله

ماذا كان ليفعل فى تلك اللحظة لو لم تفر هيلين من الغرفة .

* * *

وبعد أسبوع أعطى پيير زوجته ملء الحق أن تتحكم فى كل ضياعه الواقعة فى روسيا الكبيرة ، ومنها يتألف معظم عقاراته ، وبارح موسكو ، وحده ، إلى بطرسبرج .

الفصل السابع

انقضى شهران منذ وصلت أخبار موقعة أوسترلتز ، وفقدان الأمير أندرو ، إلى «ليسى جورى» ، وعلى الرغم من الخطابات التى أرسل بها عن طريق السفارة ومن كل ما أجرى من بحث ، لم تظهر جثته ، ولم يكن اسمه فى قائمة الأسرى . وأسوأ ما فى الأمر عند أهله أنه كانت ما تزال هناك إمكانية أن لعل سكان المنطقة قد التقطوه من على أرض الموقعة ، فعساه الآن يرقد ، ناقهاً أو محتضراً ، وحده بين الغرباء ، لا يسعه أن يرسل عن نفسه نبأ ما . وكانت الصحف التى سمع منها الأمير الشيخ عن هزيمة أوسترلتز . أول ماسمع ، تقول بأوجز وأغمض مايقال ، كما هو المألوف ، أن الروس بعد أن اشتبكوا فى معارك باهرة ، اضطروا إلى الانسحاب ، وقاموا بانسحابهم فى أتم نظام . وفهم الأمير الشيخ من هذا البلاغ الرسمى أن جيشنا قد هُـزم . وبعد أسبوع من بلاغ الصحف عن موقعة أوسترلتز ، جاء خطاب من كوتوزوف ينبىء الأمير الشيخ بالمصير الذى حاق بابنه .

كتب كوتوزوف: «سقط ابنك أمام عينىّ ، وفى يده لواء ، على رأس فرقة — سقط بطلا خليقاً بأبيه ووطنه . ولأسفى الكبير، وأسف الجيش كله ، مازال من غير المقطوع به ما إذا كان حياً أو لم يكن . وإنى لأجد راحة ، وأرجو أن تجدها ، فى أن نأمل بأن ابنك على قيد الحياة ، وإلا

لكان جاء اسمه بين الضباط الذين وجدوا فى ساحة المعركة ، وقد أرسلت بهم قائمة إلىّ ، تحت لواء الهدنة » .

وبعد أن تلقى الأمير الشيخ هذا النبأ فى آخر المساء ، فيما كان وحده بغرفة مكتبه ، ذهب فى مشيته المعتادة صباح اليوم التالى ، على أنه التزم الصمت مع رئيس خدمه ، والبستانىّ ، والمهندس . وعلى ما كان فى مظهره من جهامة بالغة لم يقل لأحد شيئاً .

فلما ذهبت إليه الأميرة مارى فى الميعاد المألوف ، كان يعمل على مخرطته . وكالمألوف ، لم يدر إليها بصره .

وقال فجأة بصوت غير طبيعى ، وهو يلقى بإزميله :

— آه .. الأميرة ، مارى .!

استمرت العجلة تدور بقوة دفعها الذاتى ، وقد ظلت الأميرة مارى فترة طويلة تذكر صرير تلك العجلة وهو يخفت ويموت ، وقد امتزج فى ذاكرتها بما تلاه من خبر .

اقتربت منه ، ورأت وجهه ، وانهار شىء ما فى داخلها ، ورانت على عينيها عتمة . ومن مظهر وجه أبيها ، غير حزين ، غير مسحوق ، بل غاضب محنق يختلج على نحو غير طبيعى . أدركت أن كارثة مخيفة تحوم فوقها ، وعلى وشك أن تسحقها ، أنكى كارثة فى الحياة ، كارثة ليس لها خبرة بها بعد ، لا تقبل الفهم ولا العلاج — موت من تحبه .

— أبى ..! آندرو ..!

قالتها الأميرة المرتبكة المُحرجة . فى لهجة لا توصف ، كأنها من السحر ، فى حزن ونسيان للذات بلغ منه أن لم يُطق أبوها احتمال نظرتها ، فأشاح عنها وهو ينشج :

خبرٌ سىء ..! ليس بين الأسرى ولا القتلى .. !وقد كتب كوتوزوف ..

وصاح صيحة ثاقبة ، كما لو كان ليريد أن يطرد الأميرة بصيحته :

— قُتِـل . !

لم تسقط الأميرة ، ولم يصبها إغماء ، كانت شاحبة من قبل ، لكنها عند هذه الكلمات ، تغيّر وجهها ، وتألق شيء ما فى عينيها الجميلتين المشعّتين . كما لو أن بهجة ما — بهجة سامية فائقة بعيدة عن أفراح هذا العالم وأحزانه — فاضت على الحزن الكبير فى داخلها وغمرته . نسيت كل خوف من أبيها ، وأقبلت عليه ، وأخذت يده ، وجذبته إليها ، ووضعت ذراعها حول عنقه الضامر المنحوف . وقالت :

— أبى ، لاتبتعد عنى . ولنبك معاً !

فصرخ الشيخ وهو يشيح عنها بوجهه :

— الأوغاد .. ! السفلة .. ! يقضون على الجيش ، ويقضون على الرجال .. ! ولماذا ..؟ اذهبي ، اذهبي واخبرى ليز .

غاصت الأميرة ، بلا حول ، فى كرسى بجانب أبيها ، وبكت ، ورأت أخاها الآن كما كان يبدو فى تلك اللحظة التى ودعها وودع ليز فيها ، نظرته حانية ومليئة بالكبرياء مع ذلك ، ورأته ، رقيقاً ، وكما لو كان يتسلى ، كما كان عندما لبس تلك الأيقونة الصغيرة .

ودار فى فكرها :

— هل آمن ؟ هل ندم على عدم إيمانه ؟ أهو الآن هناك ؟ هناك فى ملكوت السلام الأبدىّ والنعمة ؟

وسألت ، من خلال دموعها :

— أبى ، قل لى كيف حدث ذلك ؟

— اذهبى ! اذهبى ! قُتِـل فى المعركة ، حيث اقتيد أفضل رجال روسيا ، ومجد روسيا ، إلى الهلاك . اذهبي يا أميرة مارى . اذهبى وقولى لليز . سوف أتبعك .

ولما عادت الأميرة مارى من عند أبيها ، كانت الأميرة الصغيرة جالسة

تشتغل ، ونظرت إليها بذلك المظهر الغريب الذى يشى بالسكينة الداخلية السعيدة التى تمتاز بها النسوة الحوامل . كان جلياً أن عينيها لم تريا الأميرة مارى ، بل كانتا تنظران إلى الداخل .. إلى داخل نفسها . . إلى شىء خفى وحافل بالبهجة يحدث فى داخلها . .

قالت ، وهى تبتعد عن إطار تطريزها ، وتستند إلى الخلف :

— مارى ، أعطنى يدك .

وأخذت يد أخت زوجها ووضعتها تحت خصرها .

كانت عيناها تبتسمان ابتسامة المنتظر شيئاً ما ، وارتفعت شفتها المكسوة بالزغب ، وبقيت مرفوعة ، فى سعادة كسعادة الأطفال .

ركبت الأميرة مارى أمامها ، وأخفت وجهها فى طيات ثوب زوجة أخيها .

قالت ليز وهى تنظر بعينين متألقتين سعيدتين إلى أخت زوجها :

— هوّذا .. ! هوّذا . ! أتشعرين به ؟ كم أحس بالغرابة . وهل تعرفين يا مارى ، سوف أحبه جداً .

لم تستطع الأميرة مارى أن ترفع رأسها ، كانت تبكى .

— ماذا جرى يا مارى ؟

فقالت مارى وهى تمسح دموعها على ركبة زوجة أخيها :

— لا شىء .. إننى فقط أحس بالحزن .. الحزن من أجل أندرو .

وأخذت الأميرة مارى ، فى أثناء الصباح ، تحاول عدة مرات أن تمهد زوجة أخيها لتلقى الخبر ، وفى كل مرة كانت تأخذ فى البكاء . ولما كانت الأميرة الصغيرة غير حديدة الملاحظة ، فقد كانت تهذه الدموع التى لم تدرك لها سبباً باعثاً على اضطرابها . لم تقل شيئاً ، بل كانت تجيل البصر حواليها ، فى قلق ، كما لو كانت تبحث عن شىء . وقبل الغداء جاء الأمير الشيخ الذى كانت تخافه دائماً ، إلى غرفتها ، وقد اتخذ مظهراً شديد القلق

والضراوة ، وخرج ثانية دون أن يقول كلمة . فأخذت تنظر إلى الأميرة ماري . ثم جلست برهة تفكر ، وقد بدا عليها مظهر الانتباه ذاك لشيء يدور في داخلها ، وهو المظهر الذي لا يُرى إلا عند النسوة الحوامل ، ثم أخذت تبكي فجأة .

وسألت :

— هل جاء شيء من أندرو ؟

— لا ، أنتِ تعرفين أن الوقت ما زال مبكراً على وصول الأنباء . ولكن أبي قلقٌ ، وأنا أشعر بالخوف .

— لا شيء هناك إذن ؟

فأجابت الأميرة ماري ، وهي تنظر نظرة حاسمة بعينيها المشرقتين إلى زوجة أخيها :

— لا شيء . .

كانت قد استقر عزمها على ألا تقول لها ، وأقنعت أباها أن يخفي الخبر المروّع عنها ، إلى ما بعد ولادتها ، وقد كانت منتظرة خلال أيام قلائل . فاحتملت الأميرة ماري ، واحتمل الأمير الشيخ ،كلٌّ منهما حزنه ، وأخفاه بطريقته الخاصة . لم يكن الأمير الشيخ ليقبل أن يستبقي أي أمل ، كان عزمه قد استقر على أن الأمير أندرو ، قد قُتِل . وعلى أنه أرسل أحد الموظفين إلى النمسا لينقب عن آثار من ابنه ، فقد أوصي بصنع نصب تذكاري في موسكو وانتوى أن يقيمه في حديقته ، في ذكراه ، وقال للناس جميعاً أن ابنه قد قتل . وعالج ألا يُدخل تغييراً على نمط حياته السالف، لكن قوته خذلته . فكان يُقلّ من السير ، ويقلّ من الأكل ، والنوم ، ويزداد به الوهن يوماً بعد يوم . أما الأميرة ماري فقد احتفظت بالأمل . كانت تصلي من أجل أخيها كما لو كان على قيد الحياة ، وكانت دائماً في انتظار نبأ يأتيها بعودته .

الفصل الثامن

قالت الأميرة الصغيرة، بعد الافطار، فى صباح التاسع عشر من مارس:

— يا عزيزتى ، أخشى أن الإفطار هذا الصباح « فروشتيك » (*) كما يقول فوكا الطباخ ، لم يكن متفقاً مع صحتى .

وارتفعت شفتها المكسوة بالزغب ، من العادة ، ولكن الأسى كان يتبدى فى كل ابتسامة ، وفى وقع كل كلمة ، بل وفى وقع كل خطوة فى هذا البيت ، منذ أتى النبأ المروّع ، لذلك كانت ابتسامة الأميرة الصغيرة ، وقد تأثرت بالجو الشائع ، وإن لم تكن تحس سببه — تذكّر المرء ، بل تؤرث الذكرى ، بالأسى الشائع .

قالت الأميرة مارى فى قلق ، وهى تجرى بخطاها الخافتة ، الثقيلة إلى أخت زوجها :

— ما بالكِ ياحبيبتى ؟ أنت شاحبة . أوه ، شاحبة جداً ..!

قالت إحدى الخادمات ، وقد كانت هناك :

— يا صاحبة السعادة ، ألا نبعث فى طلب مارى بوجدانوفنا ؟

كانت مارى بوجدانوفنا قابلة من البلدة المجاورة . وكانت تقيم فى « ليسى جورى » منذ أسبوعين .

فوافقت الأميرة مارى .

— نعم . ربما كان الأمر ذلك . سأذهب أنا . تشجعى يا مارى.

وقبّلت ليز ، وهمّت بمبارحة الغرفة .

- أوه لا ..! لا ..!

وفضلا عن الشحوب ، والألم الجثمانى الذى بدا على وجه الأميرة الصغيرة ، تبدّى فيه تعبير عن الخوف الصبيانى من الألم المحتوم .

(*) بالألمانية Frühstück الافطار .

— لا إنه عسر هضم لا أكثر ..! قولى أنه عسر هضم ، قولى هذا يا مارى ..! قولى ..

وأخذت الأميرة الصغيرة تبكى بنزق كأنها طفل موجوع ، وتعتصر يديها الصغيرتين بشيء من التكلف أيضاً . وجرت الأميرة مارى فى طلب مارى بوجدانوفنا .

وسمعت وهى تبارح الغرفة :

— يا إلهى ..! يا إلهى .! أوه ..! (*)

كانت القابلة فعلا فى سبيلها إليها وهى تدعك يديها الصغيرتين السمينتين بمظهر الجد الهادىء .

وقالت الأميرة الصغيرة وهى تنظر إلى القابلة بعينين مفزّعتين مفتوحتين على سعتهما :

— مارى بوجدانوفنا ، أظن الولادة بدأت ..!

فقالت مارى بوجدانوفنا ، دون أن تتعجل خطاها :

— حسن ، الحمد لله يا أميرة ، أنتن السيدات الصغيرات لاينبغى أن تعرفن شيئاً بالمرة عن ذلك .

قالت الأميرة :

— ولكن كيف لم يأت الطبيب من موسكو بعد ؟

كان قد أرسل فى طلب طبيب من موسكو ، فى الوقت المناسب ، تلبية لرغبة ليز والأمير أندرو ، وكان ينتظر وصوله من لحظة إلى أخرى .

قالت مارى بوجدانوفنا :

— لايهم يا أميرة ، لاينالك القلق . سنتدبر أمرنا أحسن التدبر ، دون طبيب .

وبعد خمس دقائق سمعت الأميرة مارى فى غرفتها شيئاً ثقيلا محمولا .

(*) بالفرنسية .

فنظرت إلى الخارج . كان الخـدم يحملون الأريكة الجلدية الـكبيرة من مكتب الأمير أندرو إلى غرفة النوم . وعلى وجوههم نظرة هادئة رصينة .

جلست الأميرة ماري وحدها فى غرفتها تصغى إلى الأصوات التى تدور فى البيت ، وتفتح بابها بين الحين والآخر ، إذ يمر به شخص ما ، وترقب ما يجرى فى الممر ، وكانت بعض النسوة اللاتى يدخلن أو يخرجن من غرفة النوم ، بخطى هادئة ، يرمقن الأميرة مارى ، ويَشيحن بأبصارهن ، فلم تجسر أن تسأل سؤالا ، وأغلقت الباب ثانية ، وراحت تجلس حيناً فى مقعدها المريح ، وتأخذ كتاب صلواتها حيناً ، وتركع آونة ثالثة أمام نصب أيقوناتها . ووجدت لدهشتها وأساها ، أن صلواتها لم تطامن من اهتياجها . ثم انفتح بابها فجأة ، بهدوء ، وظهرت على عتبته مربيتها العجوز براسكوفيا شافيشنا ، وحول رأسها شال ، وكانت نادراً ما تأتى إلى هذه الغرفة ، فقد حظر الأمير الشيخ ذلك .

قالت المربية :

ـ جئت لأجلس معك قليلا ياماشا

ثم تنهدت وقالت :

ـ وقد جئت بشموع زواج الأمير لأوقدها أمام قديسه ، ياملاكى .

ـ أوه يادادا .. ما أسعدنى . !

ـ ربنا رحيم يا عصفورة .

وأوقدت المربية الشموع المفضّضة أمام الأيقونات ، وجلست بجانب الباب ، وفى يدها شغل الإبرة . وأخذت الأميرة مارى كتاباً وجعلت تقرأ . ولم تكونا تنظران إلى إحداهما الأخرى إلا إذا سُمعت أصوات أو وقع خطى ، فالأميرة عندئذ قلقة متطلعة ، والمربية مشجعة مهدئة . وكان كل من فى البيت يستأثر به الشعور الذى يخامر الأميرة مارى بغينه ، إذ تجلس فى غرفتها . ولكن هناك خرافة قائلة : أنه كلما قلّ عدد الناس الذين

يعرفون بأمر الولادة هانت آلام المرأة فى المخاض . لذلك عالج الجميع أن يتظاهروا بأنهم لايعرفون ولم يتكلم عن الأمر أحد ، على أنه فضلاً عن حسن الخلق الهادىء المشبع بالاحترام ، وهو المألوف فى دار الأمير ، فقد أحس الجميع بقلق شائع ، وطراوة فى القلب ، وشعور بأن شيئاً عظيما وحفياً يتحقق فى تلك اللحظة .

لم يكن ثم ضحك فى قاعة الوصيفات الكبيرة ، وفى قاعة الخدم جلس الجميع ينتظرون فى صمت ، وتحفز . أما فى أجنحة الأقنان البعيدة ، فقد أوقدت المشاعل والشموع ، ولم يخلد أحد إلى النوم . وكان الأمير الشيخ ، يخطو على عقبى رجليه ، ويذرع مكتبه جيئة وذهاباً ، وأرسل تيخون يطلب الأخبار من مارى بوجدانوڤنا .

— قل فقط أن «الأمير قال لى أن أسأل» ، وتعال لتخبرنى بمَ أجابت.

قالت مارى بوجدانوڤنا ، وهى تنظر للرسول نظرة لها دلالتها :

أخبر الأمير أن المخاض بدأ .

فمضى تيخون وقال للأمير .

وقال الأمير وهو يغلق الباب خلفه :

— حسن جداً ..!

ولم يسمع تيخون بعد ذلك أهون صوت من غرفة المكتب .

وبعد هنيهة عاد فدخلها ، كما لو كان ليطفىء الشموع ، فلما رأى الأمير راقداً على الأريكة ، نظر إليه ، ولاحظ وجهه الجائش بالاضطراب ، وهز رأسه وترك الغرفة دون أن يطفىء الشموع أو يقول لم دخل . وظل أفعل سر فى العالم بالخطر والرهانة يتخذ مجراه ومر المساء ، وأقبل الليل ، ولم يقل الاحساس بالترقب ، ولا الطراوة فى القلب ، بل زاد . ولم ينم أحد.

* * *

كانت تلك إحدى ليالى مارس ، إذ يبدو أن الشتاء يهم بأن يستأنف مجراه وسطوته ، فيبعثر آخر ثلوجه ورياحه ، فى غضب مستشيط . وقد أرسلت نجدة من الخيل إلى الطريق العام لتلاقى الطبيب الألمانى القادم من موسكو ، وقد كان ينتظر وصوله بين لحظة وأخرى ، وأرسل الرجال على الخيل ، بالمشاعل ، إلى مفترق الطرق ، ليقودوه على الطريق الزراعى ، بما فيه من فجوات وبرك يغطيها الثلج

كانت الأميرة مارى قد وضعت كتابها جانباً منذ زمن طويل: وجلست صامتة ، وعيناها المضيئتان مثبتتين على وجه مربيتها المغضن — كانت تعرف كل خط فى هـذا الوجه حق المعرفة — وعلى خصلة الشعر الأملح التى تفلت من تحت منديلها ، والجلد المهدّل الذى يتدلى من تحت ذقنها

وكانت شافيشنا المربية ، وشغلها فى يديها ، تحكى بصوت خفيض، ما كانت قد قالته مئات المرات من قبل ، لاتكاد تسمع أو تفهم كلماتها نفسها : كيف رزقت الأميرة المرحومة بالأميرة مارى فى كيشينيف ، لاتساعدها إلا فلاحة مولداقية ، عوضاً من قابلة .

وقالت :

— ربنا رحيم . لاحاجة للأطباء أبداً .

وفجأة هبت الريح فصفقت خشب النافذة ، بعنف ، وقد أزيل عنه الإطار المزدوج — كانت أوامر الأمير أن يزال أحد إطارى النافذة من كل غرفة حالما تعود القبرات إلى الظهور (*) — وانتزعت مزلاجاً قليل الإحكام ففتحته ، فجعلت الستارة المصنوعة من الحرير تخفق ، وأطفأت

(*) كان للبيوت فى روسيا أطر مزدوجة للنوافذ توضع فى الشتاء . ولما كان ذلك يعوق التهوية ، فقد كان من المستحسن أن يزال أحد إطارى النافذة بمجرد أن يميل الجو للاعتدال .

الشمعة بتيارها البارد المثلوج . ارتجفت الأميرة ماري . ووضعت مربيتها الجورب الذي كانت تحيـكه ، ومضت إلى النافذة ، وانحنت إلى الخارج تحاول أن تمسك بالضلفة المفتوحة . خفقت الريح الباردة بأطراف منديلها ، وخصل شعرها الأملح المنسدلة .

وقالت ، وهي تمسك بالضلفة الخشبية ولا تغلقها :

— يا أميرة ، يا عزيزتي ، هناك من يأتي بالعربة من الطريق ..! مع المشاعل . الطبيب على الأرجح .

قالت الأميرة ماري :

— أوه يا إلهي ..! الحمد لله ..! يجب أن أذهب لألقاه ، فهو لا يعرف الروسية .

ألقت الأميرة ماري شالا على رأسها ، وجرت لتلقى الوافد الجديد . ولمـا كانت تعبر الردهة رأت من خلال النافذة عربة ، لها مصابيـح ، تقف بالمدخل . فخرجت إلى السلم . كان على أحد أعمدة السياج شمعة من الشحم تختنق في التيار . وعلى بسطة السلم تحت ، وقف فيليب الوصيـف ، وهو يبدو مفزّعاً ، ويمسك بشمعة أخرى . وإلى أسفل ، ووراء منحنى السلم ، كان بالوسع أن يسمع وقع خطى حذاء كثيف من اللباد ، وصوتٍ بدا مألوفاً عند الأميرة ماري ، يقول شيئاً ما .

قال الصوت :

— الحمد لله ..! وأبي ؟

أجاب صوت دميان ، ناظر البيت ، وقد كان بالدور الأرضي :

— آوى إلى الفراش .

ثم قال الصوت شيئاً آخر ، وأجاب دميان ، واقتربت خطى حذاء اللباد من منحني السلم الذي لا يرى ، بسرعة أكبر .

وخطر للأميرة ماري :

— إنه أندرو ..! لا ، لا يمكن . ذلك خارق جداً .

وفى نفس اللحظة التى دار بذهنها ذلك ، ظهر وجه الأمير أندرو ، وقامته ، فى عباءة من الفراء اكتست ياقتها المرتفعة بالثلج ، على بسطة السلم التى كان يقف عليهـا الوصيف يمسك الشمعة . نعم ، كان هو ، شاحباً ، ناحلاً ، وعلى وجهه تعبير مغاير ، وقد أضحى ناعماً ، على نحو غريب، لـكنه مهتاج . صعد على السلم ، وعانق أخته :

وسأل :

— ألم تتلقوا خطابى ؟

ولم ينتظر رداً — ولم يكن ليحصل على رد ، فقد كانت الأميرة لا يسعها أن تتكلم — واستدار وصعد السـلم ثانية بسرعة مع الطبيب الذى كان قد دخل القاعة بعده ، فقد كانا قد التقيا فى آخر محطة للبريد ، ثم عانق أخته مرة أخرى .

— يا له من قدر غريب ، ماشا ياحبيبتى ..!

وبعد أن خلع عباءته وحذاءه اللباد ، ذهب إلى جناح الأميرة الصغيرة .

الفصل التاسع

رقدت الأميرة الصغيرة مستندة إلى الوسائد ، وعلى رأسها قلنسوة بيضاء . كانت الآلام قد خفـّت للتو . وحول خديها الملتهبين النديين بالعرق خصل من شعرها الأسود . وكان فمها الساحر الوردى ، بشفته المكسوة بالزغب، مفتوحاً ، وكانت تبتسم فى بهجة . دخل الأمير أندرو ، ووقف يواجهها عند قدم الأريكة التى كانت ترقد عليها . وكانت عيناها المتألقتان ، مليئتين بالخوف والاهتياج الصبيانى ، تستقران عليه دون أن يتغير تعبيرهما . كانت نظرتها تبدو كما لو كانت تقول : «إننى أحبكم جميعاً ، ولم أوذ أحداً ، فلم يتحتم على كل هذا العذاب ؟ ساعدونى ..!» . رأت زوجها ، لـكنها

لم تتحقق معنى ظهوره أمامها الآن .

دار الأمير أندرو حول الأريكة وقبّل جبهتها .

وقال :

— يا حبيبتى ..!

وهى كلمة لم يقلها لها أبداً من قبل

— ربنا رحيم ..

فنظرت إليه متسائلة ، فى عتاب طفلىّ .

قالت عيناها :

— انتظرت العون منكم ، فلم أجده . لم أجد عوناً منك أنت أيضاً ..!

لم تدهش لمجيئه ، لم تتحقق أنه جاء ، لم يكن لمجيئه صلة بعذابها أو خلاصها من العذاب . وبدأت الآلام مرة أخرى ، فنصحت مارى بوجدانوفنا للأمير أندرو أن يترك الغرفة .

ودخل الطبيب . وعندماخرج الأمير أندرو ، التقى بالأميرة مارى ، فلحق بها مرة أخرى. وراحا يتحدثان همساً ، على أن حديثهما كان ينقطع فى كل لحظة . كانا ينتظران ، ويصغيان .

قالت الأميرة مارى :

— اذهب يا عزيزى .

فذهب الأمير أندرو ثانية إلى زوجته ، وجلس ينتظر فى الغرفة المجاورة لغرفتها . وجاءت من غرفة النوم امرأة فزعة الوجه واختلط عليها الأمر لمرأى الأمير أندرو . غطى وجهه بيديه ، وبقى على هذا الوضع بضع دقائق . كانت تأتى من الباب أنّات مثيرة للرثاء ، عاجزة ، حيوانية . فنهض الأمير أندرو ، وذهب إلى الباب ، وحاول أن يفتحه . كان أحدهم يمسك بالباب فيبقيه مغلقاً .

وقال صوت مفزّع من الداخل :

— لا يمكن أن تدخل ! لا يمكن . !

فراح يذرع الغرفة . وتوقف الصراخ ، ومرت بضع لحظات . ثم جاءت من غرفة النوم ، فجأة ، صيحة مروعة . لا يمكن أن تكون تلك صيحتها ، لا يمكن أن تصيح هذه الصيحة .

وجرى الأمير أندرو إلى الباب . توقفت الصيحة وسمع عويل طفل :

دار بذهن الأمير اندرو للوهلة الأولى :

— فيم أخذوا طفلا هناك !

— طفل ! أى طفل .. ! . لم يوجد هناك طفل ..؟ أو لعله الطفل الوليد ..!

ثم تحقق فجأة دلالة ذلك العويل الحافلة بالبهجة ، فغص بالدموع ، وارتفق قاعدة النافذة ، وأخذ يبكى . ينشج كأنه طفل . وانفتح الباب . وخرج من الغرفة الطبيب ، مشمر الأكمام ، دون سترة ، شاحباً ومرتعش الفك استدار إليه الأمير أندرو ، لكن الطبيب رمقه بنظرة مضطربة ، وتجاوزه دون كلمة . واندفعت امرأة خارجة ، فلما رأت الأمير أندرو أقصرت ، وترددت لحظة على عتبة الباب . فدخل إلى غرفة زوجته . كانت ترقد ميتة ، فى نفس الوضع الذى رآها عليه منذ خمس دقائق ، وعلى الرغم من ثبات عينيها ، وشحوب خديها ، كان نفس التعبير مرتسما على وجهها الساحر الذى يشبه وجوه الأطفال ، وعلى شفتها العليا المكسوة بزغب أسود دقيق .

كان وجهها الساحر الفاجع الميت يقول :

— إننى أحبكم جميعاً ، ولم أوذ أحداً ، فماذا صنعتم بى !

وفى ركن من الغرفة كان ثمة شيء أحمر دقيق ند عنه صوت كمن نزوم ، ثم راح يصأى ويعوى فى يدى مارى بوجدانوفنا البيضاوين المرتعشتين .

وبعد ساعتين ذهب الأمير أندرو بخطى هادئة خافتة إلى غرفة أبيه . كان الشيخ قد عرف كل شيء .. كان يقف على مقربة من الباب ، وما أن

انفتح الباب حتى انطبقت ذراعاه الخشنتان المرِمتان حول عنق ولده ، كأنهما كلاّبة . ودون كلمة ، راح يبكي وينشج كطفل .

* * *

بعد ثلاثة أيام دفنت الأميرة الصغيرة ، ورقى الأمير أندرو السلم إلى حيث كان النعش ، ليقبلها قبلة الوداع ، وهناك فى النعش كان نفس الوجه ، وإن كان مغمض العينين . وما زال يبدو كما لو كان يقول : « آه ، ماذا صنعتم بى ؟ » ، وأحس الأمير أندرو أن شيئاً ينهار فى روحه ، وأنه آثم بخطيئة لا يستطيع علاجها ولا نسيانها . لم يكن بمقدرته أن يبكى . وجاء الشيخ أيضاً وقبّل اليدين الشمعيّتين الصغيرتين اللتين تستريحان فى هدوء ، إحداها عبر الأخرى ، على صدرها . وكان وجهها يبدو كما لو كان يقول له أيضاً : « آه ، ماذا صنعتم بى ، ولِمَ ؟ » وعندما رأى وجهها استدار الشيخ عنها بغضب .

* * *

ومرت خمس أيام أخرى . وعُمّد الأمير الصغير نيكولاس أندريفش ، كانت مربيته تسند غطاءه الصغير بذقنها ، فى حين كان الكاهن يمسح كفىّ الصبى وباطنىْ قدميه الصغيرتين الحمراوتين الغضتين ، بريشة أوزة .

كان جدّه وأبوه فى العماد ، يحمل الوليد ، مرتعشاً يخشى أن يُسقطه ، ويدور به حول جرن العماد المتخذ من الصفيح الذى ناله العطب ، ثم أعطاه لأمه فى العماد . الأميرة مارى . وجلس الأمير أندرو فى غرفة أخرى ، فى انتظار نهاية الحفل ، وقد خارت قواه من خوفه أن يغرق الطفل فى جرن العماد . ونظر إلى الطفل فى بهجة عندما أتته به المربية ، وأنغض

رأسه بالموافقة عند ما قالت له أن الشمع الذى وضع به شىء من شعر الطفل لم يغص فى الجرن ، بل طفا على الماء .(*)

الفصل العاشر

أفضت جهود الكونت روستوف الشيخ إلى تكتم دور روستوف فى مبارزة دولوخوف وبيزوخوف ، وعوضاً من أن تنزل رتبته إلى صفوف العساكر ، كما كان ينتظر ، عُيّن ياوراً لحاكم موسكو العام . ومن ثم لم يكن فى وسعه أن يذهب إلى الريف مع سائر العائلة ، بل أبقته واجباته الجديدة فى موسكو طيلة الصيف . وفاء دولوخوف إلى عافيته ، وفى أثناء نقاهته توثقت عرى الصداقة بينه وروستوف . كان دولوخوف يرقد مريضاً فى بيت والدته التى كانت تحبه حباً مشبوباً حانياً ، وكانت مارى إيڤانوڤنا العجوز، وقد أحبت روستوف لصداقته بابنها فيديا ، تحدثه فى الغالب الكثير عنه .

فكانت تقول :

— نعم يا كونت ، أنه أنبل وأطهر روحاً من عالمنا الراهن المنحط . فلا أحد الآن يحب الفضيلة ، إنها تبدو كما لو كانت ملاماً موجهاً للجميع. قل لى مثلا يا كونت أكان ذلك شيئاً شريفاً ، أكان شيئاً صائباً من بيزوخوف ؟... وفيديا ، بروحه النبيل ، يحبه ، بل حتى الآن لا يقول كلمة واحدة ضده . هذا العبث فى بطرسبرج ، حينما دبّروا لعبة على رجل البوليس، ألم يفعلوها معاً ؟ وبعد ذلك ..؟ أفلت بيزوخوف دون أن يمسه شىء ، بينما كان على فيديا أن يحمل العبء كله على كتفيه . تصور ماذا كان عليه أن

(*) فى مراسيم العماد الروسية يقطع الكاهن شيئاً من شعر الطفل ويلصقه بشىء من شمع إحدى الشموع . ويتطير القوم إذا غاص الشمع فى جرن العماد .

يعانى ! صحيح أنه أعيد إلى رتبته ، ولكن كيف كان يتسنى لهم ألا يعيدوه ؟ أعتقد أنه لم يكن هناك مثله كثيرون من أبناء الوطن البواسل والآن ـ هذه المبارزة ؟ أهؤلاء الناس لا إحساس عندهم ـ ولا شرف ؟ وهم يعرفون أنه ابنى الوحيد ، يتحدونه ، ويطلقون عليه النار مباشرة على هذا النحو ! من الخير أن الله شملنا برحمته . ولِم كان ذلك ؟ من ذا الذى لا تدبر له المكائد فى هذه الأيام ؟ وإذا كان غيوراً إلى هذا الحد ، كان ينبغى له، فى نظرى ، أن يبدى ذلك قبل الآن . لكنه يدع الأمور تجرى فى أعنتها شهوراً . ثم يتحداه ، وفى ظنه أن فيديا لن يبارزه ، لأنه مدين له بشىء من المال ! يا للخسة ! يا للدناءة ! إننى أعرف أنك تفهم فيديا ، ياعزيزى الكونت ، ولهذا ، صدقنى ، أحبك جداً . قليل هم الذين يفهمونه حقا . إنه روح سامية ، سماوية !

وكان دولوخوف نفسه يحدث روستوف فى أثناء نقاهته على نحو لم يكن لينتظره منه أحد . قال له :

— إننى أعرف أن الناس يروننى رجلا شريراً ! على رسلهم ! لست أعنى مثقال ذرة بأحد على الاطلاق ، إلا من أحب . لكن أولئك الذين أحب ، أحبهم حتى لأهب حياتى لهم ، والآخرون أكتم أنفاسهم لو وقفوا فى طريقى . إن لى أماً معبودة ، لا تقدَّر ، وصديقين أو ثلاثة — أنت منهم — أما الباقى فلا أعنى بهم إلا بقدر ضررهم أو نفعهم ومعظمهم لا يجلب إلا الضرر ، النساء بخاصة .

واستطرد :

— نعم يا بنى العزيز ، التقيت برجال محبين، نبلاء ، على خلق رفيع، لكنى لم ألتق بامرأة واحدة — سواء كانت كونتيسة أو طباخة — لم تكن ممن يُباع ويشرى . لم ألتق بعد بتلك الطهارة المقدسة والولاء الذى أنشده فى النساء . لو أننى وجدت واحدة كهذه لوهبتها حياتى ! أما أولئك ١٠

وأتى بحركة ازدراء .

— وصدقنى ، لو أننى مازلت أقدّر حياتى ، فذلك أننى مازلت آمل أن ألتقى بمثل هذا المخلوق المقدس ، تبعثنى من الموت ، وتطهرنى ، وتسمو بى . لكنك لا تفهم ذلك .

فأجاب روستوف ، وقد كان تحت تأثير صديقه الجديد :

— نعم نعم ، إننى أفهم حق الفهم .

* * *

عاد آل روستوف فى الخريف إلى موسكو . وفى أوائل الشتاء عاد دينيزوف أيضاً ، ونزل فى بيتهم . كان النصف الأول من ذلك الشتاء الذى أنفقه روستوف فى موسكو، من أسعد الفترات وأحفلها بالمرح ، له ولعائلته بأسرها . كان نيكولاس يأتى بفتية كثار إلى دار والديه . وكانت ڤيرا فتاة وسيمة فى العشرين ، وسونيا فتاة فى السادسة العشرة ، لها كل سحر الزهرة المتفتقة ، وناتاشا توشك أن تكون راشدة وما تزال بعد طفلة ، فهى حيناً ممتعة مسلية فى طفولتها ، وحيناً فتاة فاتنة .

وشاع فى بيت آل روستوف فى ذلك الوقت جو غرامى تمتاز به البيوت التى توجد فيهـا فتيات صغيرات جداً ، فاتنات جداً . وكل فتى جاء إلى البيت ـ فرأى هذه الوجوه الباسمة النضرة بالشباب السريعة التأثر ، فلعلها تبتسم لمجرد ما تحسه من سعادة ، وأحس بالحركة الفوارة المتلهفة حواليه ، وسمع تلك النوبات من انطلاق الموسيقى والغنـاء ، وثرثرة الفتيات التى لا خطر لها ، وإن كانت يشيع فيها الود ، وهن على أهبة تلقى كل شىء ، وعلأهن الأمل ـ أحس بنفس الاحساس ، وقاسم صغار عائلة روستوف استعدادهم للوقوع فى الحب ، وتطلعهم إلى السعادة .

كان دولوخوف من أوائل الشبان الذين آتى بهم روستوف ، فأحبه كل من فى البيت ، فيما عدا ناتاشا . فقد أوشكت أن تتشاحن وأخاها

بسببه . وكانت تصر على أنه رجل شرير ، وأن پيير فى مبارزته معه كان محقاً ، ودولوخوف مخطئاً ، فضلا عن أنه كان منفراً ، وغير طبيعى .

وهتفت فى عناد راسخ :

— ليس ثم ما أفهمه . إنه شرير ولا قلب له . إننى أحب مثلا صاحبك دينيزوف ، على أنه عربيد وكل شىء ، ومع ذلك أحبه ، وإذن فهأنت ترى أننى أفهم حقاً . لست أعرف كيف أقول لك هذا .. كل شىء عند هذا الرجل محسوب حسابه ، ولست أحب ذلك . أما دينيزوف ..

فأجاب روستوف ، يومىء إلى أن دينيزوف نفسه ليس شيئاً بالمقارنة بدولوخوف :

— أوه ... دينيزوف شىء جد مختلف . يجب أن تفهمى ما عند دولوخوف من روح نبيل ، ينبغى أن تريه مع أمه . يا له من قلب !

— لست أدرى . لكنى معه لست أشعر براحة . وهل تعرف أنه وقع فى حب سونيا ؟

— يا للهراء !..

— إننى متأكدة ، سوف ترى .

وتحققت نبوءة ناتاشا . كان دولوخوف الذى لا يهتم عادة بصحبة السيدات ، قد أخذ يتردد على البيت كثيراً ، وسرعان ما اتضح السؤال عمن كان يأتى من أجله — وإن لم يتكلم عن ذلك أحد . كان يأتى من أجل سونيا . وكانت سونيا تعرف ذلك ، على أنها ما كانت لتجسر أبداً على قوله ، وكانت تتضرّج بالحمرة القانية كلما ظهر دولوخوف .

كان دولوخوف يتعشى كثيراً عند آل روستوف ، ولم يكن أبداً ليتخلف عن حفلة يحضرونها ، وكان يذهب إلى الحفلات التى يقيمها يوجيل للشبان ، فقد كان يشهدها آل روستوف دائماً . كان شديد الاهتمام بسونيا ، على نحو واضح مقصود ، وكان ينظر إليها بطريقة لم يكن من شأنها لحسب

ألا تطيق نظراته دون أن تحمر ، بل كانت الـكونتيسة العجوز وناتاشا تتضرجان خجلا عند ما تريا نظراته .

كان جلياً أن هذا الرجل الغريب القوى قد وقع فى قبضة تأثير الفتاة السمراء الرشيقة التى تحب شخصاً آخر

ولاحظ روستوف شيئاً جديداً فى علاقة دولوخوف بسونيا ، لـكنه لم يفسر لنفسه هذه العلاقة الجديدة . وخطر له فيما يتعلق بسونيا وناتاشا «إنهما دائماً تحبان شخصاً أو آخر» ، لـكنه لم يكن ليستشعر نفس الراحة التى كان يحسها من قبل ، مع سونيا ودولوخوف ، وأخذ يقل من بقائه فى البيت .

وفى خريف ١٨٠٦ بدأ الناس جميعاً يتكلمون مرة أخرى عن الحرب مع نابليون ، بأشد حرارة من السنة السالفة . وأصدرت الأوامر بجمع المجندين ، عشرة رجال من كل ألف رجل . للجيش النظامى ، وتسعة رجال أخر من كل ألف ، للميليشيا . وكان بونابرت يُدان ويُحقَّر فى كل مكان ، ولا حديث فى موسكو إلا عن الحرب القادمة . أما عند آل روستوف فقد كان كل ما تثيره هذه الاستعدادات للحرب من اهتمام هو أنّ نيكولاس لم يكن ليقبل فـكرة البقاء فى موسكو ، بل كان لا ينتظر إلا انتهاء إجازة دينيزوف بعد عيد الميلاد ، ليعود معه إلى فرقتهما . ولم يَحُل سفره القريب من أن يُمتع نفسه ، بل كان يضفى على ملذاته حرارة وحماساً . كان ينفق معظم وقته بعيداً عن البيت ، فى مآدب العشاء ، والرقص والحفلات .

الفصل الحادى عشر

فى اليوم الثالث بعد عيد الميلاد تعشى نيكولاس فى البيت ، وهو شيء كان يندر أن يفعله أخيراً كان عشاءً فخماً للوداع ، فقد كان عليه أن يسافر

مع دينيزوف بعد عيد الغطاس ، لينضما إلى فرقتهما . وكان هناك حوالى عشرين شخصاً منهم دولوخوف ودينيزوف .

لم يكن الجو أبداً أحفل بالحب ، ولا كان هذا الجو الغرامى أفعل أثراً فى دار روستوف ، مما كان فى فترة الإجازة تلك حتى لكأن روح المكان تقول :

— اغتنموا لحظات السعادة ، أحبّوا ، ولتكونوا محبوبين ! تلك هى الحقيقة الواحدة فى العالم ، وكل ما عداها سفهٌ وجنون . وهو الشىء الواحد الذى يلقى منا اهتماماً هنا .

كان نيكولاس على مألوفه قد أنهك زوجين من الخيل حتى استنفد قواها ، دون أن يلم مع ذلك بكل ما كان ينتوى أن يذهب إليه ، وكل ما دعى إليه ، من أماكن .. وعاد إلى البيت قبل العشاء مباشرة . وما أن دخل حتى لاحظ ، وأحس ، توتر الجو الغرامى فى البيت ، ولاحظ أيضاً ارتباكا غريباً على بعض الحضور . كانت سونيا ، ودولوخوف ، والكونتيسة العجوز يبدو عليهم قلق واضطراب ملحوظ ، وناتاشا أيضاً ، إلى حد أقل . فأدرك نيكولاس أن شيئاً لا بد قد وقع بين سونيا ودولوخوف قبل العشاء ، فكان بحساسيته الطبيعية العطوف لطيفاً وحذراً جداً معهما كليهما فى أثناء العشاء . وفى ذلك المساء نفسه كانت هناك حفلة رقص مما يدعو إليه يوجيل ـ أستاذ الرقص ـ طلبته ، فى أثناء الإجازات..

قالت ناتاشا :

— هل تأتى يانيكولاس إلى حفلة يوجيل؟ تعال أرجوك ! لقد دعاك . وسيأتى كذلك ڤاسيلى دميتريتش (دينيزوف) .

قال دينيزوف الذى كان قد اتخذ على سبيل الدعابة ، عند آل روستوف ، دور فارس ناتاشا :

— وأين لا أذهب إذا أمرتنى الكونتيسة ؟ بل أنا على استعداد حتى

لرقص « خطوات الشال » .

أجاب نيكولاس :

— إذا توفر عندي الوقت . لكنى وعدت آل آرخاروف ، فعندهم حفلة .

وسأل دولوخوف :

— وأنت ؟

لكنه ما أن وجه سؤاله حتى لاحظ أنه لم يكن ينبغى أن يقال .

أجاب دولوخوف ببرود وغضب وهو يرمق سونيا :

— ربما .

ورمق نيكولاس بنظرة كتلك التى رمق بها بيير فى حفلة النادى بالضبط .

خطر لنيكولاس أن شيئاً لابد قد حدث ، وأيده فى هذا الاستنباط أن دولوخوف غادر البيت بعد العشاء مباشرة . فنادى ناتاشا وسألها ماذا حدث .

قالت ناتاشا وهى تجرى إليه

— وأنا كنت أبحث عنك .

وقالت بلهجة الظافر المنتصر :

— قلت لك لكنك لم تصدقنى . إنه خطب سونيا !

وعلى قلة ما شغل نيكولاس به نفسه من أمر سونيا أخيراً ، فقد بدا كأن شيئاً قد انهار فى داخله لهذا الخبر .. كان دولوخوف زوجاً مناسباً ، بل باهراً من بعض النواحى ، للفتاة اليتيمة التى لا مهر لها . ومن وجهة نظر الكونتيسة العجوز والمجتمع ، كان مما لا محل له إطلاقاً أن ترفضه . ولذلك فقد كان شعور نيكولاس لأول وهلة عند سماعه الخبر ، شعوراً بالغضب من سونيا ... فعالج أن يقول :

— هذا عظيم . ستنسى بالطبع عهدها الصبيانى وتقبل الخطبة .

لكنه قبل أن يقولها بدأت ناتاشا تقول :

— وتصور ! رفضته رفضاً نهائياً !

واستطردت بعد لحظة :

— قالت له أنها تحب شخصاً آخر .

فدار بذهن نيكولاس :

— نعم ، سونيا حبيبتى ما كانت لتفعل غير ذلك !

— ومهما ألحت ماما عليها أصرت على الرفض ، وأنا عارفة أنها لن تتغير ما دامت قد قالت ...

قال نيكولاس فى عتاب :

— وماما ألحت عليها !

فقالت ناتاشا :

— نعم . هل تعرف يانيكولاس — لا تغضب — ولكنى متأكدة أنك لن تتزوجها . أنا متأكدة ، والله وحده يدرى من أين جاءنى اليقين ، لكنى متأكدة أنك لن تتزوجها !

فقال نيكولاس :

— أنت لست متأكدة على الإطلاق . لكن يجب أن أحدثها .

وأضاف بابتسامة :

— يا لها من حبوبة ، سونيا !

— آه صحيح ، إنها حبوبة فعلا ! سأرسلها لك .

وقبلت ناتاشا أخاها ومضت تجرى .

وبعد دقيقة جاءت سونيا تبدو مفزعة كمن اقترفت إثماً . فأقبل نيكولاس عليها ، وقبل يدها . كانت تلك أول مرة ، منذ عودته ، يتحدثان وحدهما ، وعن حبهما .

بدأ يقول ، خجلاً فى البداية ، ثم بجرأة متزايدة :

— صوفى ، إذا كنت تريدين أن ترفضى شخصاً ، ليس مجرد زوج

باهر له مزاياه ، بل هو أيضاً شخص مدهش نبيل .. إنه صديقى ..

فقاطعته سونيا ، وقالت متعجلة :

— لقد رفضتُه بالفعل .

— إذا كنت ترفضين من أجلى ، فأخشى أنى ...

فقاطعته سونيا مرة أخرى ، ورمقته بنظرة خائفة ، متضرعة :

— نيكولاس ، لا تقل لى هذا !

— لا ، بل يجب علىّ . لعل فى ذلك كبرياءً منى ، وإن كان يحسن مع ذلك أن أقول لك الحقيقة كلها . إذا كنت ترفضينه بسببى ، فيجب أن أقول لك الحقيقة كلها . إننى أحبك . وأظننى أحبك أكثر من حبى لأى شخص آخر ..

قالت سونيا وهى تتضرج خجلا :

— هذا يكفينى .

— لا ، ولكنى وقعت فى الحب ألف مرة ، وسأقع فى الحب ثانية ، وإن كنت لا أحمل لشخص ما مثل ما أحمله لك من شعور بالود ، والثقة ، والحب . ثم أنى صغير السن . وماما لا تريد ... بعبارة واحدة لست أقطع وعداً . وأرجوكِ أن تفكرى فيما تقدّم به دولوخوف..

وقد لفظ اسم صديقه بمشقة .

— لا تقل لى هذا .! لست أريد شيئاً ، إننى أحبك كأخى ، وسأحبك دائماً ، ولست أريد المزيد .

— أنت ملاك . لست جديراً بك ، ولكنى أخشى أن أضلل بك .

وقبل نيكولاس يدها مرة أخرى .

الفصل الثانى عشر

كانت حفلات يوجيل الراقصة أشد الحفلات فى موسكو مدعاة للمتعة . كذلك كانت تقول الأمهات إذ يرقبن أولادهن يؤدون خطواتهم التى

تعلموها على حداثة عهد بها ، وكذلك كان يقول الفتيان والبنات إذ يرقصون حتى يوشكوا على الوقوع ، وكذلك كان يقول الشبان الكبار والنساء ، إذ يحضرون هذه الحفلات فيبدو عليهم مظهر التنازل بحضورها ، ويجدون فيها أكبر متعة وسرور . وفى تلك السنة أدت هذه الحفلات الراقصة إلى زواجين . كانت الأميرتان جوشاكوف الصغيرتان الحلوتان قد عثرتا هناك على من يخطبهما ، وتزوجتا ، ومن ثم طار لهذه الحفلات الراقصة صيت ذائع . وكانت هذه الحفلات تمتاز عن غيرها بغياب مضيف أو مضيفة ، ووجود يوجيل طيب القلب ، الذى يطير هنا وهناك كأنه ريشة يطير بها الهواء ، وينحنى وفقاً لأصول فنّه ، وهو يجمع التذاكر من زوّاره جميعاً . وكانت هناك حقيقة أخرى : أنه لا يأتى إليها إلا أولئك الذين يرغبون فى الرقص ، والاستمتاع ، كما تفعل البنات فى سن الثالثة عشرة والرابعة عشرة عند ما يرتدين للمرة الأولى ثيابهن الطويلة . وكن جميعاً ، أو كن يبدون جميعاً ، بلا استثناء تقريباً ، جميلات ، وشد ما كانت ابتسامتهن نشوى ، شد ما كانت أعينهن متألقة . وفى بعض الأحيان كانت أبرع التلميذات ـ ومن أولاهنّ ناتاشا التى كانت رشيقة إلى حد خارق ـ يرقصن «خطوات الشال» ، أما فى هذه الحفلة فلم يرقصن إلا الرقصات الأيقوسية ، والانجليزية ، والمازوركا التى كانت قد أخذت عندئذ تذيع وتنتشر . كان يوجيل قد أخذ قاعة للرقص فى بيت بيزوخوف . وكانت الحفلة ، كما يقول الجميع ، ناجحة جداً . فهناك كثير من الفتيات الجميلات ، وكانت فتيات روستوف من أحلاهن . كن سعيدات ومرحات فى الوقت نفسه . وكانت سونيا ، ليلتها ، فخورة بخطبة دولوخوف ، ورفضها ، وحديثها مع نيكولاس ، فكانت تدور وتطير قبل أن تبارح البيت ، حتى لم تكد الوصيفة تستطيع أن تضفر لها شعرها ، وكانت مشرقة وضاءة شفافة بالبهجة الدفاقة الجموح .

ولم تكن ناتاشا أقل فخراً واعتداداً بثوبها الطويل الأول ، وبوجودها فى حفلة راقصة حقيقية . فكانت أكثر منها سعادة . كانتا ، كلتاهما ، ترتديان ثوبين من الموسلين الأبيض ، بشرائط وردية .

وقعت ناتاشا فى الحب بمجرد أن دخلت غرفة الرقص . لم تكن تحب شخصاً بعينه ، بل تحب الجميع وأياً من كانت تنظر إليه كانت تحبه ، لحظتها .

وما فتئت تقول وهى تجرى مقبلة على سونيا :

— أوه ، ما أبهج ذلك ..!

كان نيكولاس ودينيزوف يتمشيان جيئة وذهوباً ، ينظران نظرة متعالية عطوفاً ، إلى الراقصين والراقصات .

قال دينيزوف :

— ما أعذبها ، ستصبح جميلة حقيقةً ..!

— من ؟

فأجاب دينيزوف :

— الكونتيسة ناتاشا .

ثم قال ثانية بعد فترة :

— ثم كيف ترقص ! يا لها من كشاقة !

عمّن تتكلم ؟

فندّ عن دينيزوف ، على مضض :

— عن أختك .

فابتسم روستوف .

قال يوحيل الضئيل القامة وهو يقبل على نيكولاس :

— يا عزيزى الكونت ، لقد كنت واحداً من أحسن تلاميذى ، يجب أن ترقص . انظر كم من السيدات الصغيرات الساحرات .

والتفت ، بنفس الطلب ، إلى دينيزوف الذي كان أيضاً من تلاميذه السابقين .

قال دينيزوف :

— يا صاحبي العزيز . إنني ثابت فى مكانى . ألا تذكر كيف كنت أسيء استخدام دروسك ؟

فقال يوجيل يسارع بتهدئة روعه :

— أوه لا .. ! كنت فقط لا تبدى انتباهاً ، ولكن كان عندك موهبة ، أوه نعم ، كان عندك موهبة !

عزفت الأوركسترا موسيقى اللازوركا الحديثة العهد بالظهور، ولم يكن فى وسع نيكولاس أن يرفض طلب يوجيل ، فطلب إلى سونيا أن ترقص معه . وجلس دينيزوف إلى السيدات العجائز ، واستند إلى سيفه ، وأخذ يدق مع إيقاع الموسيقى بقدمه ، ويحكى لهن أشياء مضحكة ، ويسليهن ، وهو يرقب الشبان يرقصون . كان أول راقصين هما يوجيل وناتاشا : معقد فخره وأولى تلميذاته . كان يوجيل يطير أولاً عبر الغرفة ، وهو يخطو بقدميه الصغيرتين فى حذائيه المنخفضين ، ببراعة ، وبلا صوت ، مع ناتاشا التى مضت ، على خجلها ، تؤدى خطواتها بعناية وحرص . لم يرفع دينيزوف عينيه عنها ، وكان يدق بسيفه مع إيقاع الموسيقى ، على نحو تبدى معه بوضوح أنه إذا كان لا يرقص ، فذلك أنه لا يريد أن يفعل ، وليس معنى ذلك أنه لا يستطيع . وفى وسط إحدى الرقصات نادى إليه روستوف الذى كان عندئذ يمرّ به ، وقال :

— ليس ذلك هو المقصود بالمرة .. أهذه مازوركا پولندية ؟ لكنها ترقص فعلا بشكل رائع !

ولما كان نيكولاس يعرف أن لدينيزوف صيتاً ذائعاً ، حتى فى پولندا ، لأستاذيته فى رقص اللازوركا ، فقد جرى إلى ناتاشا قائلا :

— اذهبي واختاري دينيزوف . إنه راقص حقا ، عجيب !

فلما جاء دور ناتاشا أن تختار شريكها فى الرقص نهضت ، ومضت تنقل خطاها السريعة فى حذائها الصغير المطرز بالشرائط ، وجرت خجلة إلى الركن الذى كان يجلس فيه دينيزوف . ولاحظت أن الجميع ينظرون إليها ، وينتظرون . ورأى نيكولاس أنها ودينيزوف يتشاحنان مبتسمين ، وأن دينيزوف ، على ابتسامه بسرور ، كان يرفض . فجرى مقبلا عليهما .

كانت ناتاشا تقول :

— أرجوك يا ڤاسيلى دميتريتش ، تعالَ أرجوك !

وأجاب دينيزوف :

— لا يا كونتيسة ، اعتقينى .

فقال نيكولاس :

— ڤاسكا ، وبعد ؟

قال دينيزوف بمزح :

— إنهم يطايبوننى كما لو كنت ڤاسكا القط !.(*)

قالت ناتاشا :

— سأغنى لك ليلة بأكملها .

قال دينيزوف :

— أوه .. هذه الحورية ! تستطيع أن تصنع بى ما تشاء !

وفكّ سيفه من حزامه وخرج من وراء الكراسى ، وأمسك بيد مراقصته مسكة حازمة ، وألقى برأسه إلى الوراء وتقدم بقدمه ، فى انتظار

(*) ڤاسكا فى روسيا هو الاسم الذى يطلق عادة على القطط ، وهو فى نفس الوقت تصغير اسم ڤاسيلى .

دّقة إيقاع الرقصة . لم تكن قامة دينيزوف القصيرة لتُلحظ عند ما يكون على متن جواده ، أو فى رقصة المازوركا ، فهو يبدو عندئذ بالفعل كما يستشعر نفسه ، شخصاً رائعاً . وعند الدّقة الصحيحة فى إيقاع الموسيقى نظر إلى جنب ، إلى مراقصته ، نظرة مرحة ظافرة ، وخبط بإحدى قدميه فجأة ، ووثب من على الأرض كالكرة ، وطار حول الغرفة وقد أخذ رفيقته معه . انزلق صامتاً عبر منتصف الغرفة ، وبدا كأنه لم يلحظ الكراسى ، فهو مندفع مباشرة إليها ، وإذا به يصلصل بمهمازيه فجأة ، ويبسط ما بين قدميه . ثم توقف مرة واحدة على كعبيه، ووقف على هذا الوضع لحظة ، وخبط على الأرض وهو يصلصل بمهمازيه ، وأخذ يدوّم ويدور بسرعة ، ويدق كعبه الأيسر بكعبه الأيمن ، وهو يطير ثانية فى دائرة . لحدست ناتاشا ما ينوى أن يفعل ، وتركت نفسها له ، وتبعته وهى لما تكاد تعرف كيف تأتى لها ذلك . فأدارها أولاً حول نفسها ، وهو يمسكها أولاً بيده اليسرى ، ثم بيده اليمنى، ويسقط مرة على إحدى ركبتيه فيديرها حول نفسه ، ثم يقفز مرة أخرى إلى أعلى ، ويندفع إلى الأمام جامحاً مسرعاً حتى ليبدو أنه سيخترق الغرف كلها متتابعة دون أن يلتقط نَفَساً ، ثم يقف مباغتة ليقوم بخطوات جديدة غيرمنتظرة . وعند ما أدار مراقصته فى النهاية برشاقة حتى أتى بها أمام كرسيها ، وشد قامته . ومهمازاه يصلصلان ، وانحنى لها ، لم تنحن ناتاشا رداً عليه ، بل ثبتت عليه عينيها فى دهشة ، مبتسمة كما لو كانت لا تعرفه .

واستطاعت أن تقول :

— ما معنى هذا ؟

وعلى أن يوجيل لم يعترف بتلك الرقصة باعتبارها المازوركا الحقيقية ، فقد كان الجميع مبتهجين لبراعة دينيزوف . وطُلب منه أن يرقص مراراً وتكراراً ، وأخذ الشيوخ يتحدثون مبتسمين عن پولندا ، وعن الأيام

الطينية الحوالى . وجلس دينيزوف متضرج الوجه ، بعد المازوركا ، يمسح وجهه بمنديله ، بجانب ناتاشا ، ولم يبرحها سائر الليلة .

الفصل الثالث عشر

لم ير روستوف ، طيلة يومين بعد ذلك ، دولوخوف ، لا فى بيته ، ولا فى بيت دولوخوف . وفى اليوم الثالث تلقى منه رسالة :

« لما كنت لا أنوى أن أزور بيتكم مرة أخرى لأسباب تعرفها ، وكنت سألحق بفرقتى ، فإننى أدعو أصدقائى الليلة إلى حفلة عشاء للوداع — تعال إلى الفندق الانجليزى . »

وفى نحو العاشرة ذهب روستوف إلى الفندق الانجليزى مباشرة ، بعد خروجه من المسرح ، حيث كان مع عائلته ودينيزوف ، وأُفضى به على الفور إلى أفضل غرفة فى الفندق ، وكان دينيزوف قد حجزها ليلتها . كان ثم عشرون رجلا متحلّقين حول مائدة جلس إليها دولوخوف بين شمعتين ، وعلى المائدة كومة من النقود الذهبية والأوراق المالية . وكان دولوخوف يحتفظ بالبنك فى اللعب . لم يكن روستوف قد رآه منذ أن تقدم بخطبته ورفضته سونيا ، ولم يكن يستشعر راحة لفكرة لقائهما .

وما أن دخل روستوف الغرفة حتى لقيته نظرة دولوخوف الصافية ، الباردة ، كما لو كان ينتظره منذ أمد طويل .

وقال :

— مضى زمن طويل منذ التقينا . شكراً لمجيئك . سأنتهى حالا من تفريق الورق ، ثم يأتى إليوشكا وفرقته .

قال روستوف ووجهه يحمر :

— ذهبت مرة أو مرتين إلى بيتك .

فلم يجب دولوخوف .

وقال :

— تستطيع أن تلعب .

وتذكر روستوف فى تلك اللحظة حديثاً غريباً كان له مرة مع دولوخوف . قال دولوخوف عندئذ : «ما يثق بالحظ فى اللعب إلا الحمق» .

وسأله دولوخوف الآن ، كما لو كان حدس أفكار روستوف :

— أو لعلك تخشى أن تلعب معى ؟

رأى روستوف ، تحت ابتسامته ، ذلك المزاج الذى أبداه فى حفلة العشاء بالنادى ، وفى غيرها من المناسبات ، عند ما كان يبدو كما لو أنه قد سئم الحياة اليومية المألوفة ، فهو يحس حاجة للهرب منها بعمل غريب هو فى العادة عمل قاسٍ .

لم يستشعر روستوف راحة . وعالج ، وأخفق ، أن يجد نكتة يرويها رداً على كلمات دولوخوف . على أنه قبل أن يكون قد فكر فى شىء يقال ، قال دولوخوف ببطء ، وتدبُّر ، وهو ينظر إليه مواجهة ، حتى يتاح للجميع أن يسمعوه :

— أتذكر أن كان لنا حديث عن اللعب ... « إن من يثق بالحظ أحمق ، وعلى المرء أن يتيقن » ، إننى أريد أن أجرب .

ساءل روستوف نفسه :

— يجرب حظه أو يجرب اليقين ؟

استطرد دولوخوف :

— حسناً ، يحسن بك ألا تلعب

ثم فتح حزمة جديدة من أوراق اللعب ، وقال :

— بنك أيها السادة !

ودفع بالنقود إلى الأمام ، وهمّ بأن يفرق الورق . جلس روستوف إلى جانبه ، ولم يلعب أول الأمر . وظل دولوخوف يرمقه . وسأله :

— لماذا لا تلعب ؟

ومن الغريب أن روستوف أحس أنه ليس فى وسعه ألا يأخذ ورقة ، ويراهن عليها بمبلغ صغير ، ويبدأ اللعب . قال :

— ليس معى نقود .

— إننى أثق بك .

راهن روستوف بخمسة روبلات على ورقة ، وخسر . وراهن ثانية ، وخسر مرة أخرى . « قتله » دولوخوف ، أى غلب روستوف فى عشر ورقات متتابعة .

قال دولوخوف بعد أن كان قد وزّع الورق فترة من الوقت :

— أيها السادة ، ضعوا نقودكم على الورق من فضلكم ، وإلا فقد يختلط علىّ الحساب .

قال أحد اللاعبين أنه يأمل أن يكون موضع ثقة .

فأجاب دولوخوف :

— نعم ، لك هذا . لكنى أخشى أن تختلط الحسابات . لذلك أسألكم أن تضعوا النقود على أوراقكم .

وأضاف ملتفتاً إلى روستوف :

— لا تبخل على نفسك . سنسوّى الحساب فيما بعد .

واستمر اللعب ، واستمر أحد السقاة يوزع الشمبانيا .

ولم تكسب ورقة واحدة من أوراق روستوف ، وبلغ دينه ثمانمائة روبل . كتب على إحدى الأوراق «٨٠٠ روبل» ، وفيما كان الساقى يملأ قدحه ، عدل ، وغيّرها إلى المبلغ العادى الذى كان يراهن به : عشرين روبلاً .

قال دولوخوف :

— دعها .

على أنه لم يبدُ أنه كان ينظر إلى روستوف إطلاقاً .

— ستكسبها أسرع . سأخسر للآخرين ، لكنى سأكسب منك .

ثم سأل ثانية :

— أم أنت خائف منى ؟

فخضع روستوف . وترك الثمانمائة روبل تبق ، ووضع على المائدة سبعة سباتى ممزقة من الركن ، التقطها من على الأرض . وقد تذكر هذه السبعة حق الذكر فيما بعد . وضع على المائدة السبعة السباتى التى كان قد كتب عليها ، بقطعة مكسورة من الطباشير «٨٠٠ روبل» بأرقام واضحة قائمة ، وأفرغ كأس الشمپانيا الدافئة التى أعطيت له ، وابتسم لكلمات دولوخوف . وبقلبٍ متدهور خائر ، فى انتظار أن تخرج له السبعة ، راح يحدق إلى يدى دولوخوف اللتين تمسكان بحزمة الورق . كان الشيء الكثير يتوقف على أن يكسب روستوف ، أو يخسر ، هذه السبعة السباتى : كان الكونت الشيخ قد أعطى ابنه ، يوم الأحد السابق ، ألفى روبل ، وعلى أنه كان دائماً يكره الحديث عن المتاعب المالية ، قال لروستوف أن ذلك كل ما بوسعه أن يعطيه ، حتى مايو ، وطلب منه أن يكون أكثر اقتصاداً هذه المرة . فأجاب روستوف أن فى ذلك ما يزيد عن كفايته ، وأعطى كلمة شرف ألا يأخذ شيئاً آخر حتى الربيع . ولم يبق الآن من ذلك المبلغ إلا ألف ومائتا روبل ، فلم تكن هذه السبعة السباتى تعنى عنده خسارة ألف وستمائة روبل ، بل تعنى أيضاً ضرورة الحنث بكلمته . بقلب متدهور خائر راح يرقب يدى دولوخوف ، ودار بذهنه :

— هيا ، عجّل ودعنى آخذ هذه الورقة ، وسآخذ بعدئذ قبعتى وأذهب للبيت أتعشى مع دينيزوف ، وناتاشا ، وسونيا ، ولن أمس ورقة أبداً بعد الآن ، بالتأكيد .

فى تلك اللحظة تمثلت له حياته فى البيت ، ودعاباته مع پيتيا ، وأحاديثه مع سونيا ، ورقصاته مع ناتاشا ، ولعب « البيكيت » مع أبيه ،

بل سريره المريح في البيت المطل على شارع پوڤارسكايا ، تمثت له كلها بوضوح ، وتألق ، وفتنة ، بلغ معها أن بدا له كل ذلك كما لو كان نعمة فقدها دون أن يقدرها قدرها ، وقد مضت عنه منذ أمد طويل . لم يكن ليستطيع أن يتصور أن صدفة غبية حمقاء ، تتيح للسبعة أن تقع إلى اليمين بدلا من اليسار ، قد تحرمه هذه السعادة التي اتضح له قدرها حديثاً ، وضاءت وأشرقت أمام عينيه حديثاً ، فتغوص به إلى أغوار شقاء مجهول وغير محدّد . ما كان ذلك ليقع ، ومع ذلك فقد كان ينتظر ، بقلب متدهور خائر ، حركة يدى دولوخوف هاتان اليدان العريضتان المحمرتان ، بمعصميهما الأشعرين اللذين يبدوان من تحت كمى قميصه ، وضعتا حزمة الورق على المائدة ، ورفعتا كأساً وغليوناً قُدما إليه .

وردّد دولوخوف :

— فأنت إذن لا تخشى أن تلعب معى ؟

وكما لو كان يهم بأن يحكى قصة طيبة مسلية ، وضع الأوراق على المائدة ، واستند إلى ظهر كرسيه ، وقال ، فى تدبر متعمّد ، بابتسامة :

— أيها السادة ، قيل لى أن هناك إشاعة تتردد فى موسكو أننى أغش فى اللعب . فأنصحكم أن تأخذوا حذركم .

هتف روستوف :

— هيا الآن ، فرّق الورق !

قال دولوخوف :

— آه من ثرثارى موسكو هؤلاء !

وأخذ الورق ، بابتسامة .

أوشك روستوف أن يصيح وقد رفع يديه إلى رأسه :

— آه .. !

كانت السبعة التى يحتاجها هى أول ورقة . فقد خسر إذن أكثر مما

بوسعه أن يدفع .

قال دولوخوف ، وهو يرمق روستوف بنظرة جانبية ، ويواصل توزيع الورق :

— ومع ذلك ، فلا تدفع بنفسك للخراب ..!

الفصل الرابع عشر

بعد ساعة ونصف لم يكن لمعظم اللاعبين كبير اهتمام بلعبهم .

كان الاهتمام كله منصباً على روستوف . وعوضاً من ألف وستمائة روبل كانت ديونه قد بلغت عموداً طويلا من الأرقام ، حسبها فوصلت إلى عشرة آلاف روبل ، لكنها الآن ، فيما يتوهم ، لابدّ قد ارتفعت إلى خمسة عشر ألف . وهي في الحقيقة قد جاوزت بالفعل عشرين ألف روبل . لم يكن دولوخوف يصغى الآن إلى حكايات ما ، أو يحكيها ، بل يتتبع كل حركة من يدى روستوف ، ويُجرى عينيه ، بين الحين والحين ، على حساب ديونه . كان قد قرّ عزمه على اللعب حتى يبلغ هذا الحساب إلى ثلاثة وأربعين ألف روبل. واستقرعند هذا الرقم ، لأن مجموع عمره وعمر سونيا يبلغ ثلاثة وأربعين . كان روستوف يسند رأسه إلى يديه ، جالساً إلى مائدة امتلأت بكتابات الأرقام ، وابتلت من النبيذ المسكوب ، وتناثرت عليها أوراق اللعب . وثم إحساس واحد معذّب لا يبارحه : أن هاتين اليدين المحمرّتين بعظامهما العريضة ، ورسغيهما الأشعرين اللذين يبدوان من تحت كمّي القميص ، هاتين اليدين اللتين يحبهما ، ويمقتهما ، تمسكان به في قبضتهما .

— ستة آلاف روبل ، آس ، پارول ، تسعه .. يستحيل استرجاعها .. أوه ، شدّ ما كان الأمر ساراً وبهيجاً في البيت .. ولد ، « دوبل » أو « كيت » .. لا يمكن ! لِمَ يصنع ذلك بي ؟

كان أحيانا يقامر بمبلغ كبير ، على أن دولوخوف كان يابى أن يقبله ، ويحدّد المبالغ بنفسه . وكان نيكولاس يعنو له وفى لحظة من اللحظات توجه إلى الله بالصلاة ، كما فعل فى الميدان عند جسر « إنس » ، ثم كان يزعم لنفسه أن أول ورقة تأتيه من الكومة المهوّشة تحت المائدة هى التى لتنقذه ، ثم يعدّ الشرائط المضفورة على حلّته ، ويأخذ ورقة بهذا الرقم ، ويعالج أن يقامر بمجموع خسائره عليها ، ثم ينظر حواليه يتلمس عوناً من اللاعبين الآخرين ، أو يحدّ النظر إلى وجه دولوخوف الذى أمسى الآن بارداً هادئاً ، ويعالج أن يستنبط ما يدور بذهنه .

كان يقول لنفسه :

— إنه يعرف بالطبع ماذا تعنى هذه الخسارة عندى . وليس فى وسعه أن يتمنى القضاء علىّ ..؟ ألم يكن صديقى ؟ ألم أكن أحبه ؟ على أن ذلك ليس من ذنبه . ماذا بوسعه أن يفعل إذا كان يأتيه مثل هذا الحظ ؟. على أنه ليس ذنبى أيضاً ... فلم أقترف شراً . أقتلتُ أحداً ، هل ألحقت إهانة بأحد أو تمنيت لأحد ضراً ؟ فيم هذا البلاء المروّع إذن ؟ ومتى بدأ ؟ منذ برهة يسيرة جئت إلى هذه المائدة وفى ظنى أن أكسب مائة روبل لأشترى علبة الحلىّ تلك أهديها لماما فى عيدها ، وأمضى إلى البيت . شدّ ما كنت سعيداً ، حراً ، خفيف القلب ! وما كنت أدرى مدى سعادتى ! فمتى انقضى ذلك ، ومتى بدأت هذه الحال المروّعة الجديدة ؟ وما ذاك الذى آذن بتغيّر الحال ؟ جلستُ طيلة الوقت فى هذا المكان بعينه على هذه المائدة ، وانتقيتُ أوراق اللعب ، ولعبتُ بها ، وراقبتُ هاتين اليدين بحركاتهما الخفيفة السريعة ، وعظامهما العريضة ، بنفس الطريقة الواحدة لم أغيّرها . فمتى حدث ذلك ، وماذا حدث ؟ إننى قوى ، وبخير ، وما زلت لم أتغير ، ولم أغيّر مكانى . لا ، لا يمكن ! وسوف ينتهى ذلك كله ، بالتأكيد ، إلى لاشىء !

كان متضرج الوجه ، غارقاً فى عرقه ، على أن الغرفة لم تكن حارّة . وكان مرأى وجهه مروّعاً مثيراً للرثاء ، وبخاصة من أثر جهوده العاجزة العقيمة أن يبدو رابط الجأش .

بلغ حساب ديونه المبلغ المقدور ، ثلاثة وأربعين ألف . كان روستوف قد أعدّ لنفسه ورقة ، ولما يكد ، بأن ثنى طرفها ، وكان ينوى أن يضاعف الثلاثة آلاف روبل التى قُيدت لحسابه ، عند ما خبط دولوخوف حزمة الورق على المائدة ، ونحاها ، وطفق يجمع خسائر روستوف بسرعة ، وقد انكسر منه إصبع الطباشير وهو يخط الأرقام بخطه الواضح الجسور .

— العشاء ! حان وقت العشاء ! وها قد جاء الغجر !

كان يدخل من برْد الخارج ، بالفعل ، نفر من الرجال والنساء سمر الوجوه ، يقولون شيئاً ما بلهجتهم الغجرية . وفهم نيكولاس أن كل شىء قد انتهى ، لكنه قال بنبرة لا احتفال فيها :

— حسناً ، ألا تريد أن تستمر ؟ كانت عندى ورقة مدهشة .

كما لو كان أكثر ما يشوقه هو بهجة اللعب .

ودار فى ذهنه :

— انتهى كل شىء ! لقد ضعت ..! رصاصة فى الرأس ، هذا كل ما تبقى لى ..!

وقال فى نفس الوقت بصوت مرح :

— هيّا ، هذه الورقة الصغيرة أيضاً لا أكثر ..!

قال دولوخوف ، بعد أن فرغ من جمع الأرقام :

— حسناً ..! حسناً ..! واحد وعشرين روبل .

مشيراً إلى رقم واحد وعشرين ، وهو الرقم الذى تجاوز به مجموع ديون روستوف مبلغ ثلاثة وأربعين ألف روبل ، وأخذ حزمة من الورق ، وهمّ بأن يفرّق الورق . فبسط روستوف ، فى خضوع ، طرف ورقته

المثنّى ، وكتب واحداً وعشرين ، بدلا من الستة آلاف التي كان قد انتواها . وقال :

— الأمر عندي سواء . كل ما أردت أن أرى ما إذا كنت ستكسب مني هذه العشرة أم تخسرها .

فأخذ دولوخوف يفرّق الورق جاداً . وشد ما كان روستوف في تلك اللحظة يمقت هاتين اليدين ، بأصابعهما الحمر ، ورسغيهما الأشعرين ، اليدين اللتين تمسكان به في قبضتهما ... وكسب العشرة .

قال دولوخوف :

— أنت مدين لي بثلاثة وأربعين ألف ، يا كونت .

وتمطّى ، ونهض من على المائدة . وقال :

— يتعب المرء من الجلوس طول هذا الوقت .

قال روستوف :

— نعم ، تعبت أنا أيضاً .

فبادره دولوخوف كما ليذكره أن ليس المزاح لمن كان في شأنه ، وقال :

— متى أقبض النقود يا كونت ؟

فتضرج روستوف ، وأخذ دولوخوف إلى الغرفة المجاورة . وقال :

— ليس بوسعي أن أدفعها كلها حالاً . هل تأخذ بها صكا ؟

قال دولوخوف ، بصوت واضح مستبين ، باسماً . وهو ينظر إلى نيكولاس في عينيه مواجهة :

— اسمع يا روستوف . أنت تعرف المثل « سعيد الحظ في الحب ، عاثر الحظ في اللعب » ، بنت عمك تحبك ، هذا أعرفه .

فدار في ذهن روستوف :

— ما أفظع أن يحس المرء بنفسه في قبضة هذا الرجل .

كان يعرف أى صدمة سيوقعها بأبيه وأمه، بنبأ خسارته ، ويعرف أى راحة فى أن يروغ من هذه الحكاية كلها ، ويحس أن دولوخوف على بينة من مقدرته على إنقاذه من كل هذا الخزى والأسى ، لكنه يريد أن يلعب به . كما تلعب القطة بالفأر .

بدأ دولوخوف يقول :

— إن بنت عمك ...

لكن روستوف قاطعه ، وهتف بشراسة :

— ليس لبنت عمى شأن بهذا ، ولا حاجة لإقحامها فيه ..!

— متى أقبض إذن ؟

أجاب روستوف :

— غداً .

وبارح الغرفة .

الفصل الخامس عشر

لم يكن شاقاً أن يقول غداً ، وأن يُبقى على نبرة الوقار والحفاظ على الكرامة فى صوته إذ يقولها ، ولكن أن يمضى للبيت وحده ، ويرى أخواته ، وأخاه ، وأمه ، وأباه ، أن يعترف ، ويطلب مالاً لا حق له فيه ، بعد أن أعطى كلمة شرف ، ذلك كان شيئاً مروعاً .

لم يكونوا قد ذهبوا إلى الفراش بعد ، فى البيت . كان الشبان ، بعد أن عادوا من المسرح ، قد تناولوا العشاء ، وتجمعوا حول البيانو . وما أن دخل نيكولاس حتى تغشّاه جو الحب الشاعرى ذاك الذى كان يشيع فى بيت روستوف ذلك الشتاء . وقد بدا الآن كما لو كان قد غدا أكثف قواماً حول سونيا ، وناتاشا ، بعد خطبة دولوخوف ، وحفلة يوجيل ، كما يكثف الهواء قواماً قبل عاصفة راعدة . كانت سونيا ، وناتاشا ، فى أرديتهما

الخفيفة الزرقاء اللاتى ذهبتا بها إلى المسرح ، وهما تبدوان حلوتين ، وتحسان ذلك . وكانتا تقفان إلى البيانو ، سعيدتين ، باسمتين . وكانت ڤيرا تلعب الشطرنج مع شينيشين فى غرفة الاستقبال . وكانت الكونتيسة العجوز فى انتظار عودة زوجها وابنها ، جالسة تلعب لعبة الصبر بالورق ، مع السيدة العجوز التى تنزل فى الدار . كان دينيزوف متألق العينين ، مشعث الشعر ، يجلس إلى البيانو يضرب أوتاره بأصابعه القصيرة ، وقد دفع بساقيه إلى الوراء ، وعيناه تدوران وهو يغنى بصوته الصغير الأجش ، على صدقه وإخلاصه ، أشعاراً أسماها « الفاتنة » ، ألفها ، وهو الآن يعالج أن يوفق لها ألحاناً :

خبّرينى يا حلوتى ، خبّريني
أى سحر يفضى إلى قيثارى
أى نارٍ تلك التى تكوينى
أى سحر ذاك الذى يشجيني
فيبثّ الهناء فى أوتارى

كان يغنى بصوت مشبوب بالوجد ، يحدق بعينيه المتألقتين السوداوين سواد العقيق اليمانى ، إلى ناتاشا ، وهى سعيدة وجلة .

هتفت ناتاشا :

— رائع ! ممتاز !

وقالت دون أن تلحظ نيكولاس :

— قل بيتين آخرين من الشعر !

ففكر نيكولاس وهو يلقى بنظرة إلى غرفة الاستقبال ، حيث رأى ڤيرا وأمه مع السيدة العجوز :

— كل شىء على حاله عندهم .

صاحت ناتاشا وهى تجرى إليه :

— آه ... ها هو ذا نيكولاس !

فسأل :

— بابا موجود ؟

قالت ناتاشا ، دون أن تجيب سؤاله :

— ما أسعدنى أن أتيت ! كم نحن نستمتع بالوقت ! وسيبقى ڤاسيلى دميتريتش يوماً آخر من أجلى ! هل عرفت ؟

قالت سونيا :

— لا ، لم يعد بابا بعد .

نادته الكونتيسة العجوز من غرفة الاستقبال :

— نيكولاس ، هل رجعت ؟ تعال هنا يا عزيزى !

فمضى نيكولاس إليها ، وقبّل يدها ، وجلس صامتاً إلى مائدتها ، وأخذ يرقب يديها تنسقان الورق . وما فتئوا يسمعون الضحكات تأتى من غرفة الرقص ، وأصواتاً مرحة تعالج إغراء ناتاشا بأن تغنى .

صاح دينيزوف :

— حسناً . حسناً ..! لا جدوى الآن من التعلل بالحجج ..! جاء دَوْرك لتغنى « البايكايوللا » . أتوسل إليك ..!

رمقت الكونتيسة ابنها الصموت ، وقالت :

— ماذا جرى ؟

فقال كما لو كان قد سئم ترداد السؤال طيلة الوقت :

— لا شىء . هل يعود بابا سريعاً ؟

— أظن ذلك .

فدار فى ذهنه :

— كل شىء على حاله عندهم . لا يعرفون شيئاً ! فأين أذهب ؟

وعاد إلى غرفة الرقص ، حيث كان يقوم البيانو .

كانت سونيا جالسة إلى البيانو تعزف مقدمة « باركاروللا » دينيزوف الأثيرة إليه ، وناتاشا تتأهب للغناء . وكان دينيزوف ينظر إليها بعينين مستهامتين مفتونتين .

طفق نيكولاس يذرع الغرفة جيئة وذهوباً . ودار بذهنه :

— فيم يريدونها على أن تغنى ؟ كيف يسعها أن تغنى؟ ليس ثم مايدعو للسعادة !

عزفت سونيا أولى نغمات المقدمة .

ومضت به أفكاره :

— يا إلهى ، إننى رجل مضيّع ، مجلّل بالعار ..! رصاصة فى الرأس هى كل ما تبقى لى — وليس الغناء! أهرب ؟ إلى أين ؟ كل شىء سواء — فليغنّوا ..!

واستمر يذرع الغرفة ، وهو ينظر ، مربدّاً جهْم الوجه ، إلى دينيزوف ، والفتيات ، ويتحامى أنظارهم .

وبدا كما لو كانت عينا سونيا المثبتتان عليه تسألانه :

— نيكولاس ، ماذا جرى ؟

كانت قد لاحظت ، على الفور ، أن شيئاً ما قد حلّ به .

فأشاح نيكولاس عنها . وكانت ناتاشا أيضاً ، ببديهتها الحاضرة ، قد لاحظت على الفور حالة أخيها . ولكنها ، وإن كانت قد لاحظتها ، كانت عندئذ فى حال من البهجة ما أبعدها عن الأسى ، أو الحزن ، أو تقريع النفس حتى تَختّلت نفسها ، عامدة ، شأن الشباب فى الغالب الكثير من الأحيان . كان إحساسها أنْ : « لا ، إننى الآن أسعد من أن أفسد بهجتى بالعطف على أحزان أحد» . وقالت لنفسها : « لا ، لابد أننى مخطئة ، لابد أنه يشعر بما أشعر به من سعادة . »

ومضت إلى وسط الغرفة تماماً ، حيث كانت ترى أن تلك هى البقعة المُثلى لترداد أصداء الغناء ، وقالت :

— والآن ، سونيا ..!

ورفعت ناتاشا رأسها ، وتركت ذراعيها تسقطان إلى جانبيها ، بلا حياة ، كما تفعل راقصات الباليه ، ومضت وهى تنقل خطاها ، من الكعب إلى أطراف الأصابع ، سريعة نشطة ، حتى بلغت وسط الغرفة ، ووقفت بلا حراك .

كانت تبدو كما لتقول :

— نعم ، هذه أنا !.

رداً على نظرة الوجد والافتتان التى تتبعتها بها عينا دينيزوف .

وفكّر روستوف وهو ينظر إلى أخته :

— وفيم سعادتها هذه كلها ؟ كيف يسعها ألا تستشعر الخزى والحنق؟

بدأت ناتاشا تغنى ، وامتلأ حلقها بالغناء ، وارتفع صدرها ، واكتسبت عيناها جداً ورصانة . فى تلك اللحظة نسيت ما يحيط بها ، وانسابت من شفتيها الباسمتين أصواتٌ لعل الناس جميعاً بوسعهم أن يصدروها بنفس الإيقاع ، فلا تترك أثراً ولا صدى فى النفس ألف مرة من المرات ، لكنها فى المرة الواحدة بعد الألف تشجيك ، وتفتنك عن نفسك ؛ حتى لتبكى .

كانت ناتاشا قد بدأت تأخذ الغناء مأخذ الجد فى ذلك الشتاء ، لأول مرة ، لأن دينيزوف ، أساساً ، كان جدّ سعيد بغنائها . فلم تعد تغنى كما يغني الأطفال ، ولم يعد فى غنائها تلك النغمة الصبيانية المضحكة المثابرة التى كانت لها من قبل ، لكنها لم تبلغ مع ذلك إلى تجويد الغناء ، فقد كان كل من معها من الذوّاقين يقول : « ليس صوتاً مدرباً ، لكنه صوت جميل ، يجب أن يُحسَن تدريبه » . على أنهم كانوا يقولون ذلك بعد أن تفرغ من غنائها ببعض الوقت . وفيم كان ذلك الصوت غير المدرّب يرتفع ، بأنفاسه غير المنتظمة ، وانتقالاته التى يتبدى فيها الجهد ، كان الذوّاقون الخبراء أنفسهم لا يقولون شيئاً ، بل يستمتعون به ويجدون فيه سروراً ،

ويتمنون لو سمعوه ثانية . فقد كان فى صوتها جدة وطراوة عذرية ، وبراءة عن الحسّ بعدى قوته ، ونعومة مخملية مازالت غير مدرّبة ، تمتزج كلها بمايعوزها من فن فى الغناء ، حتى ليبدو ألا سبيل إلى تغيير شيء ما فى ذلك الصوت دون أن يفسد .

فكّر نيكولاس ، وهو يصغى إليها بعينين مفتوحتين على سعتهما :

— ما هذا ؟ ماذا حدث لها ؟ كيف تغني اليوم ..!!

وتركز العالم كله عنده ، فجأة ، فى انتظار نغمتها التالية ، وجملتها التالية، وانقسم العالم كله إلى ثلاث إيقاعات : أو ميو كروديلى أفيتو(*) . واحد، اثنين ، ثلاثة ... واحد ، اثنين ، ثلاثة ... واحد ... أو ميو كروديلى أفيتو ... واحد ، اثنين ، ثلاثة ... واحد ..

ودار فى ذهنه :

— أوه ، حياتنا هذه التى لا طائل وراءها ..! كل هذا الشقاء ، النقود ، دولوخوف ، والغضب ، والشرف — كلها باطل ولغو ... أما هذا فحق ... هيا الآن يا ناتاشا ، هيا يا أعز الناس إلىّ ..! هيا ياحبيبتى ..! كيف ستغنى نغمة الـ « سى» القادمة ؟ لقد غنتها ..! الحمد لله ..!

ودون أن يلحظ أنه يغني معها ، انطلقت منه نغمة «سى» ثانية ، وثالثة ، تحت النغمة المرتفعة ، حتى يدعمها . وخطر له :

يا إلهى .. ما أروع هذا ! هل غنيتها فعلا ؟ ما أسعد ذلك !

نعم ، شد ما كان رائعاً ارتعاش تلك النغمة ، وشد ما اهتز له ذلك الشيء الذى كان أسمى الأشياء فى نفس روستوف ، وأنبلها ..! ذلك شيء بعيد عن كل ما عداه فى العالم ، وأكثر من كل ما عداه فى العالم سمواً وسموقاً .

(*) الأغنية باللغة الايطالية .

— ما الخسائر ، ودولوخوف ، وكلمات الشرف ..؟ باطلٌ كلها ولغو ! قد يَقتل المرء، ويسرق ، ويسعد مع ذلك ..!

الفصل السادس عشر

لم يكن روستوف قد استمتع بالموسيقى ، منذ زمن طويل ، متعته بها فى ذلك اليوم . على أنه ما كادت ناتاشا تفرغ من أغنيتهـا حتى مَثلت له الحقيقة ثانية . فنهض دون أن ينبس بكلمة ، ومضى إلى غرفته بالدور الأرضى . وبعد ربع ساعة عاد الكونت الشيخ من ناديه ، مبتهجاً ، راضى النفس . وسمع نيكولاس عربته قادمة ، فذهب ليلقاه .

قال الكونت الشيخ مبتسماً لابنه فى مرح وفخار :

— حسناً ، قضيتَ وقتاً طيباً ؟

فعالج نيكولاس أن يقول «نعم» فما وسعه ذلك . وأوشك أن ينفجر باكياً . كان الكونت يشعل غليونه ، فلم يلحظ حال ولده .

دار بذهن نيكولاس ، للمرة الأولى والأخيرة :

— آه .. لا سبيل إلى اتقاء ذلك .

وقال فجأة ، فى لهجة بلغت أكبر مبلغ من البساطة العرضية ، حتى لأشعرته بالخزى من نفسه ، كما لو كان يطلب من أبيه أن يعيره العربة يمضى بها إلى البلدة :

— بابا ، جئت فى مسألة عمل . وأوشكت أن أنسى . أحتاج شيئاً من المال .

قال أبوه ، وقد كان عندئذ حسن المزاج على نحوٍ غير مألوف :

— يا إلهى ..! قلتُ لك أن ذلك المبلغ لن يكفيك . كم ؟

قال نيكولاس وقد تضرَّج وجهه ، بابتسامة غبيّة لا مبالاة فيها ، أعياه بعد ذلك طويلاً أن يغفرها لنفسه :

— كثيراً جداً . خسرت شيئاً من نقود ، أعنى قدراً كبيراً من النقود قدراً كبيراً ، ثلاثة وأربعين ألف روبل .

صاح الكونت وقد احمرّ وجهه فجأة حمرة تكاد تدانى حمرة الصرع ، فوق العنق والقذال ، شأن الشيوخ :

— ماذا ..! لمن ..؟ هراء ..!

قال نيكولاس :

— تعهدت أن أدفع غداً .

قال الكونت الشيخ ، وقد بسط ذراعيه ، وغاص فى الأريكة بلا حول ولا قوة :

— يا لله ..!

قال الابن بلهجة هيّنة ، جسورة ، طلقة :

— لا حيلة فى ذلك ..! يحدث هذا للناس جميعاً ..!

وهو يرى نفسه ، فى دخيلته ، وغداً لا يعدل قلامة ظفر ، لن تفى حياته كلها بجريرته تلك . وتاق لأن يقبّل يدى والده ، لأن يجثو أمامه يضرع إليه أن يعفو عنه ، لكنه قال ، بصوت لامبالاة فيه ، بل فيه وقاحة ، أنّ ذلك يحدث للناس جميعاً ..!

غضّ الكونت الشيخ عينيه إذ سمع كلمات ابنه ، وأخذ يبحث ، فى هرولة وانشغال ، عن شىء ما .

وتمتم :

— نعم ، نعم ، أخشى أنْ سيكون ذلك صعباً ، صعباً ، أن نجد هذا المبلغ .. يحدث للناس جميعاً ..! نعم ، مَن لم يفعلها ؟

وخرج الكونت من الغرفة ، وهو يسترق نظرةً إلى ابنه ... كان نيكولاس قد اتخذ أهبته لمواجهة الاعتراض ، لكن ذلك لم يكن فى حسبانه على الإطلاق .

فنادى أباه وهو يشهق بالبكاء :

— با با ..! با .. با .. سامحنى ..!

وأمسك بيد أبيه ، وضغطها إلى شفتيه ، وانفجر باكيا .

* * *

وفيما كان الأب وولده يقلبان المسألة على وجوهها ، كانت الأم وابنتها تتدارسان مسألة لا تقل عنها خطراً . فقد أقبلت ناتاشا إلى أمها ، تجرى وقد استبد بها الانفعال :

— ما ما ..! ما ما ..! لقد تقدم لى ...

— تقدم بم ؟

فهتفت :

— تقدم تقدم لى بخطبته . ما ما ..! ما ما ..!

لم تصدق الكونتيسة أذنيها . تقدم دينيزوف بخطبته ، لمن ؟ لهذه البنت الغرة ، ناتاشا التى لم يمض وقت طويل منذ كانت تلعب بعرائسها ، وهى مازالت تتلقى دروسها بعد .

قالت ، وفى مرجوّها أن يكون الأمر دعابة :

— كفى يا ناتاشا ..! يا للهراء ..!

فقالت ناتاشا مغضبة :

— أى هراء ..؟ إننى اخبرتك بالخبر اليقين . جئت أسألك ما أصنع ، وأنت تقولين .. هراء ..!

فهزت الكونتيسة كتفيها :

— لو كان حقاً أن المسيو دينيزوف تقدم لك بخطبته ، فقولى له أنه أحمق ، هذا كل مافى الأمر ..!

فأجابت ناتاشا مغضبة ، وبجد :

ـــ لا ، إنه ليس بأحمق ..!

قالت الكونتيسة ، بضحكة تنم عن ضيق :

ـــ حسناً إذن ، فماذا تريدين؟ أنتم جميعاً عشاق، هذه الأيام . حسناً ما دمتما متحابين ، تزوجيه ! أسعدكما الله . !

ـ لا يا ماما . لست أحبه . أظن أنني لست أحبه .

ـــ حسناً إذن ، فقولي له ذاك .

ـــ ماما ، أنت مغضبة ؟ لا تغضبي يا حبيبتي .. أهو ذنبي ؟

قالت الكونتيسة باسمة :

ـــ لا ، ولكن ما هذا يا عزيزتي ؟ أتريدينني أن أذهب فأقول له ؟

فقالت ناتاشا مستجيبة لها بابتسامة :

ـــ لا ، سأفعل ذلك بنفسي ، وإنما خبريني ماذا أقول . الأمر عندك سواء ، وإنما كان ينبغي لك أن تري كيف قال ذلك .. إنني واثقة أنه لم يكن ينوي أن يقول شيئاً ، لكن الأمر جاء عرضاً .

ـــ حسناً ، ومع ذلك فعليك أن ترفضي .

ـــ لا ، ليس لزاماً عليّ أن أفعل . شد ما أنا آسفة له ..! فكم هو لطيف ..

فأجابت الكونتيسة بجدّة وسخرية :

ـــ حسناً إذن . فاقبلي خطبته . فقد حان الوقت حقاً أن تتزوجي .

ـــ لا يا ماما ، ولكني آسفة له جداً . لست أدري كيف أقول له .

قالت الكونتيسة ، وقد أغضبها أن قد جرؤا على أن يُدرجا ناتاشا هذه الصغيرة مدارج الكبار الراشدين :

ـــ وليس لك أن تقولي شيئاً ..! سأكلمه بنفسي .

ـــ لا ، أبداً ..! سأخبره بنفسي ، وسوف تُصغين أنت من على الباب.

وجرت ناتاشا تعبر غرفة الاستقبال إلى قاعة الرقص ، حيث كان

دينيزوف جالساً على نفس الكرسى ، إلى البيانو ، ووجهه بين يديه .

فوثب واقفا إذ سمع خطاها الخفيفة .

وقال ، وهو يقبل عليها بخطى سريعة :

— ناتالى ستقررين مصيرى . إنه بين يديك .

— ڤاسيلى دميتريتش(*) ، إننى جد آسفة لك ..! لا ، إنك لطيف جداً .. لكن الأمر لن يستقيم ... ليس على هذا النحو . لكنى سأحبك دائماً كصديق .

فانحنى دينيزوف على يدها ، وسمعت أصواتاً غريبة لم تدرك معناها . وقبّلت رأسه وشعره الخشن الأسود الجعْد . وفى تلك اللحظة سمعا حفيف رداء الكونتيسة . وأقبلت إليهما .

قالت بصوت فيه حرج ، وإن كان قد لاح قاسياً فى مسامع دينيزوف :

— ڤاسيلى دميتريتش ، إننى أشكرك لهذا الشرف . لكن بنتى مازالت صغيرة جداً ، وكنت أظنك ، بوصفك صديق ابنى ، خليقاً بأن تتجه إلىّ أولاً بالخطاب وعندئذ ما كنت لتضطرنى أن أرفض على هذا النحو .

قال دينيزوف ، وقد غض من بصره وبدا على وجهه مظهر الإثم :

— يا كونتيسة ..

وعالج أن يُرد ، لكن الكلام خذله .

فلم يكن فى طاقة ناتاشا أن تُبقى على هدوئها وهى تراه فى هذه الحال . وأخذت تبكى بصوت مرتفع .

ومضى دينيزوف يقول بصوت مضطرب :

— يا كونتيسة ، قد أخطأتُ . ولكن صدقينى ، إننى أعبد بنتك ،

(*) الخطاب بالاسم الأول واسم الأب صيغة ودية ، وأكبر حظاً من حسن الأدب ، من الخطاب باللقب ، لذلك لم تدعه ناتاشا بالكولونيل دينيزوف .

وكل عائلتك ، حتى لأهب حياتى ...

ونظر إلى الـكونتيسة ، فلما رأى وجهها الصارم قال :

— حسناً ، إلى اللقاء يا كونتيسة .

وقبل يدها ، وبارح الغرفة بخطى واسعة سريعة حاسمة ، دون أن ينظر إلى ناتاشا .

* * *

وفى اليوم التالى ودعه روستوف . فلم يكن ليريد البقاء فى موسكو يوماً واحداً آخر . وأقام له أصدقاؤه فى موسكو جميعاً حفلة وداع عند الفجر ، فنجم عن ذلك أنه لم يكن يذكر كيف وضعوه فى الزحافة ، ولا كيف مرّت به المراحل الثلاث الأوَل من رحلته .

وبعد سفر دينيزوف قضى روستوف أسبوعين آخرين فى موسكو ، دون أن يبرح البيت ، فى انتظار المال الذى لم يكن بوسع أباه أن يجمعه على الفور . وقد أنفق معظم هذه الفترة فى غرفة الفتيات .

وكانت سونيا أحنى عليه ، وأكثر ولاءً ، من أى وقت مضى . كما لو كانت لتريد أن تبرهن له أن خسارته إنما كانت عملاً يزيد من حبها له ، على أن نيكولاس كان يرى نفسه الآن غير خليق بها .

وكان يملأ دفاتر البنات بالشعر والموسيقى ، فلما أرسل إلى دولوخوف ، فى النهاية ، الثلاثة والأربعين ألف روبل ، وتلقى إيصاله عنها ، سافر فى نهاية نوفمبر ، دون أن يودع أحداً من أصحابه ، ليلحق بفرقته التى كانت قد بلغت بولندا .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٨٩٧٢/١٩٩٤

I.S.B.N. 977-01-4130-5



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠ قرش